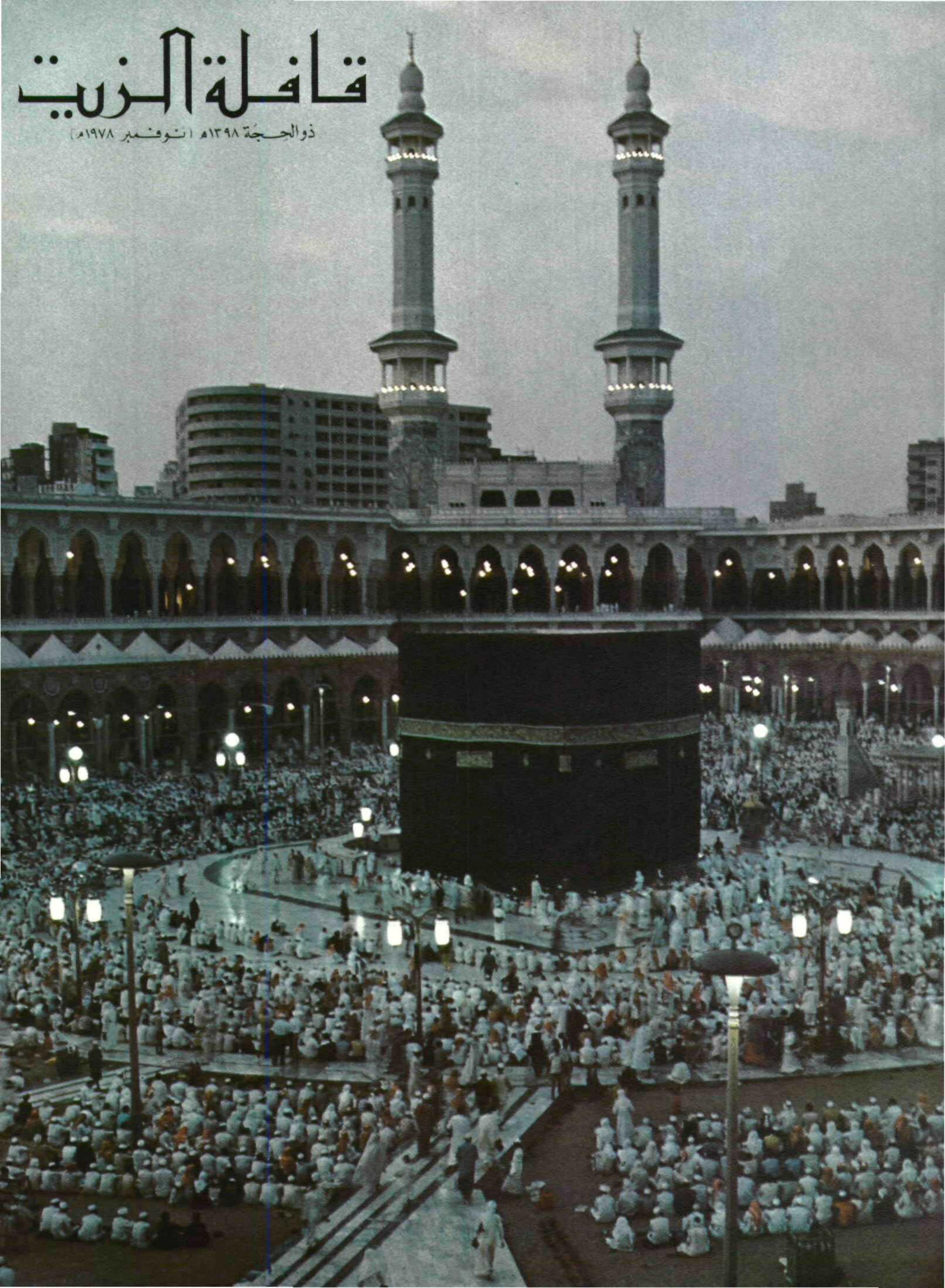

قافلة الزيت
ذوالحجة ١٣٩٨هـ (نوفمبر ١٩٧٨م)



حجاج بيت الله الحرام يرمون الجمرات في منى

تصوير : شيخ أمين

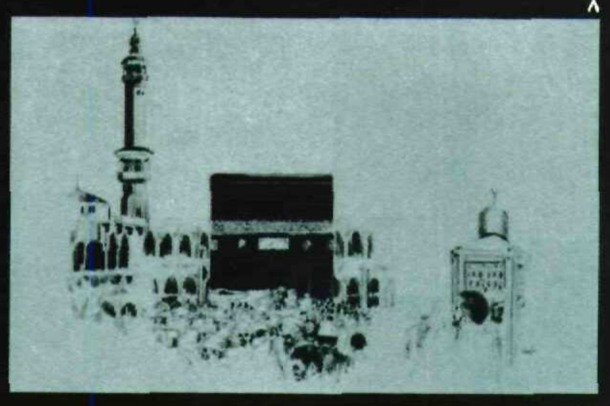
بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

المجلد السادس والعشرون

محتويات العدد

٨



١٨



٢٨



٤٤



تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة
توزع مجاناً

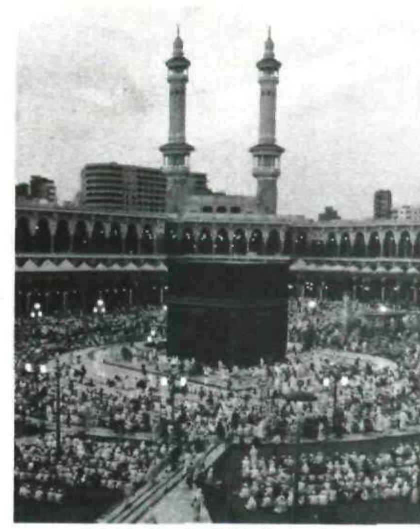
العنوان
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - المملكة العربية السعودية

المدير العام : فيصل محمد البسام

المدير المسؤول : إسماعيل ابراهيم نواب

رئيس التحرير : عبدالله حسين الغامدي

المحرر المساعد : عوني أبو كشك



الغلاف على صورة الغلاف الأمامي والخلفي

«وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً»

«صدق الله العظيم»

تصوير : شيخ أمين

تصميم وطباعة مطابع البنوي - جدة - المملكة العربية السعودية
DESIGNED AND PRINTED BY BANAWI PRINTERS - JEDDAH, SAUDI ARABIA

عيد مبارك

إنه لمن دواعي غبطتي أن أغتنم فرصة حلول عيد الأضحى المبارك لأقدم لزملائي المسلمين من موظفي شركة أرامكو وأفراد عائلاتهم أخلص التهاني وأطيب التمنيات، ضارعاً إلى المولى القدير أن يعيده عليهم جميعاً بالخير والبركات.

وكل عام وأنتم بخير

جان ج. كلبرر

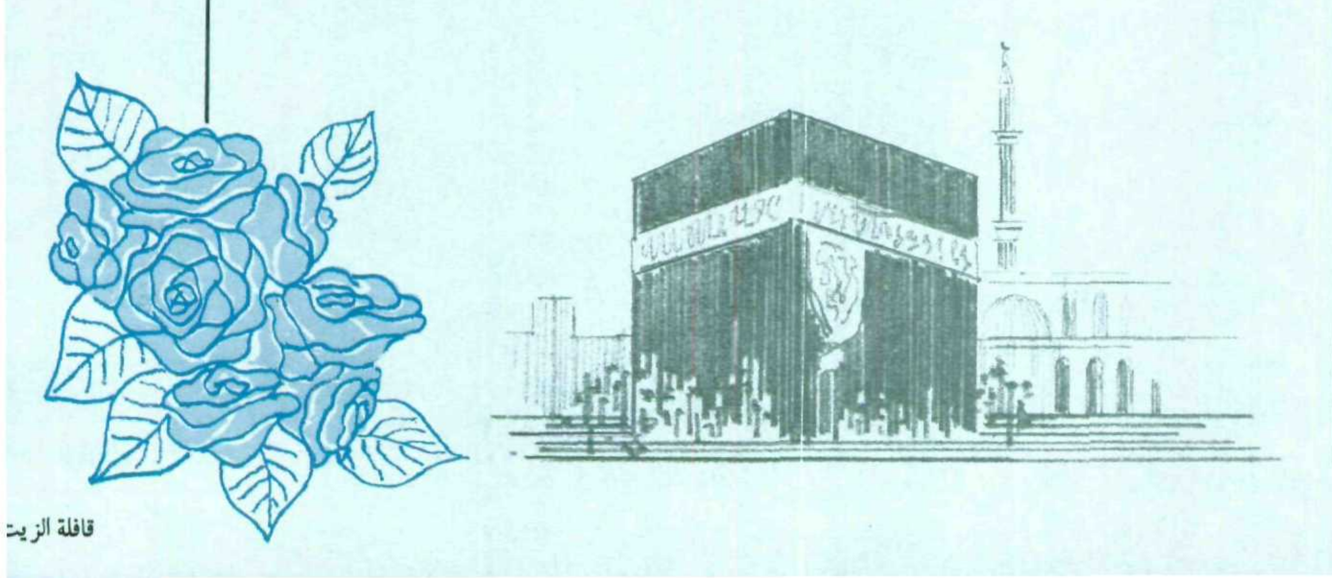
جان ج. كلبرر

رئيس مجلس الادارة

كل عام وأنتم بخير

يطيب لهيئة تحرير "قافلة الزيت" أن تنتهز هذه المناسبة السعيدة لترفع إلى جلالة الملك خالد المعظم وولي عهده الكريم وإلى حجاج بيت الله الحرام وإلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وإلى قرائها الكرام أخلص التهاني وأسمى الأماني داعية إلى الباري جل وعلا أن يعيدهم جميعاً إلى أمثاله بالخير واليمن والإقبال.

هيئة التحرير





يعتبر زهير بن أبي سلمى القمة التي وصل اليها الشعر الجاهلي من حيث الجودة والعمق ، لقد نظر زهير الى العملية الفنية ، عملية ابتداع الشعر على أنها صناعة دقيقة ، يجب أن يوفر لها صانعها كل ما يضمن لها الاتقان والجودة .. لذلك جاء شعره نموذجاً فنياً فريداً ، يدل على ما وصل اليه فن الشعر من رقي وازدهار .

اننا اذا قرأنا ديوان زهير نستطيع أن نلاحظ مجموعة من الخصائص الفنية الدقيقة التي تميز شعره .

أولها : النزعة العقلية .. تلك النزعة التي فطن اليها القدماء حين قالوا «أنه يجعل عقله زماماً على رأيه ، ويجعل رأيه عياراً على شعره» ومن مظاهر هذه النزعة العقلية .. تركيب صور كلية ثم تفصيلها وتفريعها الى عناصرها الجزئية .. أي أنه يأتي بصور كلية ثم يأتي بفروعها وجزئياتها .. حتى يحللها تماماً .. ويفسر مضمونها .

من مثل قوله :

تنازعت المها شبها ودر البـ حور وشاكهت فيها الظباء

فهذه صورة مركبة رسمها زهير .. فالصفة الأولى التي أخذتها هذه الجميلة من المها صفة الجواهر ولآلىء البحور ، فلها عينان جميلتان كعيون المها ، ولونها أبيض كاللالىء في البحر ، وعنقها طويل جميل كعنق الظباء .

ثم عاد لينقل هذه الصورة الكلية الى عناصر جزئية فقال:

فأما ما فويق العقد منها فمن أدماء مرتعها الخلاء
وأما المقلتان فمن مهاة وللدر الملاحة والصفاء

ويقول أيضاً :

وان الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء
فذلكم مقاطع كل حق ثلاث كلهن لكم شفاء

يعني يميناً أو منافرة الى حاكم يقطع بالبينات ، أو جلاء وهو بيان وبرهان يجلو به الحق وتتضح الدعوى وهذه الأمور الثلاثة هي التي تفصل في المشكلات ويتبين بها الحق وينقطع اللجاج .. ومن هذه الصور الكلية ومن تفريعها الى جزئيات تتضح لنا نزعته العقلية التي اكتسبها نتيجة لعمق تفكيره وخبرته في الحياة .

ونزعة أخرى هامة : نجدها في شعر زهير .. انها **«النزعة الأخلاقية»** .. وفي الحقيقة .. أن هذه النزعة الأخلاقية ظاهرة عامة في الشعر الجاهلي فكل الشعراء يتمثلون المثل الأعلى الأخلاقي في شعرهم ، وهم ينسبون الى نفوسهم كل الصفات الأخلاقية التي يفضلونها ولكننا اذا نظرنا الى النزعة الأخلاقية عند زهير .. فاننا نجد أنها تتخذ لوناً مختلفاً ، فهو ليس كغيره من الشعراء الذين يضيفون الى أنفسهم المثل الخلقي الأعلى في مواقف الغزل أو الهجاء .. انما الطابع الغالب على شعر زهير هو أنه يضيف هذا المثل الأعلى الأخلاقي الى غيره من الرجال الذين قاموا بأعمال عظيمة فقدرهم مجتمعهم ، وأخذ يتمثل المثل

الأعلى في شخصياتهم وتصرفاتهم .. ولم يكن زهير يبغي من وراء ذلك مالا ولا شهرة وانما هو اعجاب بما أسـدوه الى المجتمع القبلي من خدمات .

وتظهر هذه النزعة الأخلاقية في شعر زهير من ناحيتين :

الأولى : دعوته الى نبذ الحرب ورسمه لها صورة قبيحة ، ثم بث الفزع والرعب من نتائجها ثم الدعوة الى السلام ، واظهار النتيجة الطيبة التي ستعود على العرب لو استجابوا الى هذا النداء .

أما الناحية الثانية : فتظهر من ناحية مدحه لهؤلاء الذين حملوا الأمانة وقت هذه المنازعات ببذل كل نفيس لديهم دون أن يكون لهم مصلحة في ذلك إلا حب السلام وما جبلت عليه نفوسهم من رغبة في الخير وميل الى العطاء .

يقول في مدح هـرم والحارث وسعيهمـا في الصـلح وتحملهما الديات :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما أن ندرك السلم واسعاً ... بمال ومعروف من الأمر نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم

عظيمين في علياء معد وغيرها ... ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم

ويتابع قوله .. فيضفي عليهما صفـات المثل الأعلى الخلقي .

والحقيقة أن هذه النزعة الأخلاقية عمل على ابرازها نزعته العقلية لأن هذه النزعة الأخلاقية ما هي إلا نوع من التأمل والتفكير .

فمساوئ الحروب ومزايا السلام لا يفطن اليها إلا انسان متأمل مفكر خاصة في وقت كانت فيه دواعي الحرب أقوى من أن تجعل انساناً يفكر في السلام .

ونزعة ثالثة : تظهر شعر زهير .. **انها النزعة البيانية ..**

لقد امتاز فن زهير بنوعين من الثراء ... ثراء في الصور وثراء في الموسيقى .

أما في التصوير : فان معظم صوره قـد بهرت القدماء والمحدثين .. وما زالت تبهرهم كلما تعمقوها . لقد اعتمد زهير في رسم صوره على الاستعارة بنوعيها التصريحية والمكنية . وان غلب على شعره اللون الأول .

ويمكننا أن نعلل هـذه الظاهرة بقولنا .. ان زهير ما كان ليعجبه الألوان البسيطة التي كان يمنحهـا له التشبيه مثلا ، لأنه أول ما يلجأ اليه الانسـان اذا أراد أن يعبر عن شيء لا تساعده التراكيب اللغوية على أدائه . لذا كان يلجأ الى الاستعـارة في رسم صوره . فهي ترضي نوازعـه الذاتية لأنها تتطلب مجهوداً عقلياً ، ورقياً حسياً ، وعمقاً في التفكير ، كما تتطلب أفقاً ناضجاً . وهذه هي وسائله التفكيرية وأدواته التعبيريـة .

لقد كان يحيط صوره باطار منمق جميل ، ثم يعتمد بعد ذلك على تأمل طويل ووقفات تتفاوت بين الطول والقصر . ثم مراجعة للانتاج الفني لتنقيح ما لم يؤد ما أراد توصيله من رؤى وأفكار .

لذلك لم يكن التشبيه ليرضي نفسه أو نوازعه أياً كانت ألوان هذا التشبيه انما كان يستخدم الصور البيانية العميقة البعيدة التي يمنحه إياها فن الاستعارة وهذا ما يدفعنا الى القول **ان الاستعارة جاءت متأخرة في الظهور عن التشبيه ..**

استمع الى قوله :

رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم أوردوا ... غمـاراً تسـيل بالرماح وبالـدم

فقضـوا منايـا بينهم ثم أصدروا ... الى كـلأ مسـتوبـل متوخـم

أي أنهم كانوا في صلاح من أمورهم ، ثم صاروا الى حرب يستعمل فيها السلاح وتسفك الدماء ثم أنهم أقلعوا عن القتال واشتغلوا بالاستعداد له ثانية .

فجعل عزمهم على الحرب بمنزلة الكلأ الوبيل الوخيم .

فهم يقاسون من الحروب كما تقاسي تلك الابل التي ترعى تلك المراعي الوبيلة اذا أرادت أن تشرب . وهي صورة غير مألوفة تعطينـا أبلغ دليل على هذه النزعة البيانية التي ترتبط أيضاً بالنزعة العقلية .

ومن آثار هذه النزعة البيانية – أو قل الصنعة الفنية – في شعر زهير .. أننا نجد كثيراً من ألوان البديع مثـل الطباق والجناس والمقابلـة مبثوثاً في شعره . وهو بديـع لم يأت عفواً في معظمه ، اذ نشعر أن الشاعر أحس بقيمته في اضافة بعض القيم الجمالية الى شعره . فوقف عنده وبدأ يلون شعره منـه . وهو نتيجة لمراجعته لفنه ، وعنايته الشديدة بـه وتعبه البالغ في اخراجه في أحسن صورة يرجوها له .

من مثل قوله :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطىء يعمـر فيهـرم

واعلم علم اليوم والأمس قبلـه ... ولكنني عن علم ما في غـد عـم

ففي البيت الأول نجد طباقاً بين (تصب .. ونخطىء) وطباقاً ثانياً بين (تمته ويعمر) ... وفي البيت الثاني : نجد جناساً غير كامل بين (أعلم وعلم) وبين (علم وعم) .

هذه الخصائص الفنية في شعر زهير وغيرها كثير .. رفعت منزلته في الشعر وجعلته شاعر أهل الجاهلية . وأحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء ●

د. أحمد جمال العمري – المدينة المنورة

الشعر والفن على المفترق

بقلم : الاستاذ سليم واكيم

لا بد من أن يثير هذا الموضوع ، لأول وهلة ، حساسية عند القراء ، فيشتمون منه التبشير بنهاية الفن والشعر في عصر التكنولوجيا الراهن ، الحقيقة أن الموضوع مثير فعلا ، غير أن معالجته هنا هي محاولة بحث في ضوء المقارنات بين كبار المفكرين الذين بحثوا بجدية في مصير الفن والشعر بازاء العلم الذي بـــدأ منذ أواخر القرن التاسع عشر ، يحقق منجزات تتضمن المعجزات حقاً . ثم ، ليس من يستطيع في مقال ، وحتى في كتاب ، أن يحسم موضوعاً شائكاً كهــذا لذا ، فالمقال هذا من شأنه أن يلقي ضوءاً على جوهر القضية التي لا بد وأنها تشغل النخبة في العالم العربي حيث كانت صحراؤه الكبرى مهــداً أصيلا للشعر .

واذا ما أخذنا بآراء الغربيين في هذا المضمار ، فليس ذلك ناجماً عن مركب نقص معين أو نوع من المفاضلة بين الغربيين والشرقيين ، انما لجأنا خصيصاً الى هذه الناحية لأن الشرق ، من الناحية الثقافية والاجتماعية وغيرها يمرّ ، لا بل ، يعاني الأزمات التي عاناها الغرب في أواخر عصر النهضة والقرن التاسع عشر . وربما انطبقت أقوال هؤلاء المفكرين وتعليقاتنا عليها ، بشكل أكثر موضوعية ، على أوضاعنا الراهنة .

وكالمعتاد ، ليس لدينا موقف معين جازم ، انما نترك للقراء الحكم أو اتخاذ المواقف ، على كلّ ، نود أن نلفت الانتباه الى أن عدم اتخاذ أي موقف من هذا القبيل هو اتجاه على كل حال.

نظرة عامة

ان الهجوم الصاعق الذي يشنه العلم على الفن والشعر في ميدان الثقافة ، هجوم يتبناه بعض الكتاب دون العلمــاء الذين يعنون حقاً بالعلم النظري والعملي ، يوحي لانسان العصر أن العاطفه البشرية تتقلص مع الأيام . لقد غير عصر الآلة الكثير من معالم البشرية فشرع يزيل القديمة . ومرد هذا التقلص اتساع دائرة المصالح والمنافع الخاصة بالنسبة الى حياة الانسان ، فكان أن ضاقت دائرة العاطفة جداً في داخله .

لقد ظن الأقدمون ، يقول الكتاب الناهضون للفن والشعر ، أن الفن خالد ، كذلك تخيّل الشعراء الكبار . لكن اتجاهات العصر الظاهرة تحاول أن تقضي على آمالهم وأمانيهم بلا هوادة ، إذ أن مجرد نظرية علمية أو فلسفية ترد الفن الى حجمه الواقعي ، الى ما سموه بلعبة بسيطة تنم

عن مواهب معينة في الانسان . فيرد الكتاب المدافعون عن الفن والشعر ، أنه لو افترضنا أن ذلك صحيح ، فان النظرية العلمية أو الفلسفية لا تستطيع أن تدمر هذه اللعبة أو تمحوها من الوجـود .

إذن ، ما هو الموقف المناسب ؟ وما العمل والعلم يطغى في كل ميدان ؟ وكل ما حولنا ، لا بل ، كل ما نستعمله وما لا غنى لنا عنه في حياتنا اليومية ليس إلا وليد العلم ؟ فالمنزل والسيارة والراديو وجهـــاز التلفزيون والهاتف والكومبيوتر والطائرة والأعتدة الحربية وما شاكل ذلك ، كل هذه العناصر لم نكن لنعرفها ونسخّرها لولا العلم . وهنا ، لا بد لنا من التســـاؤل ، هل استطاع هوميروس ، شاعر الاغريق ، وفرجيل ، شاعر الرومان ، والمتنبي ، شاعر العرب ، والفردوسي ، شـــاعر الفرس ، أو أي شـــاعر آخر ، أن يصنع مسماراً أو دولاباً أو جهازاً مهما تضاءل شأنه ؟ كذلك ، هل استطاع ميكلنجلو الرسام أو بيتهوفن الموسيقي وغيرهما أن يحققا أي اختراع يفيد عملياً أو نستعمله في حياتنا اليومية ؟ .

جوهـر الفن والشعـر

ان الجمال والخير ، بعد أن اعتبرهما روّاد الفكر ، زماناً طويلا حقائق ميتافيزيقية تنزع الى أن تدخل فينا ، فتؤثر على شعورنا وتأخذ بجوارحنا كافة ، ليست ، في نظر العلماء المعاصرين أو الكتاب المدافعين عنهم ، سوى نتائج يتمخض عنها تكويننا الثقافي . فالجمال ، في نظر مدرسة التطور ، هو التعبير عن نوع معين أو قـــدر محدود من اللذة مرتبطة ككل لذة ، بنمو الحياة وتطورها ، ولكن هل نستطيع أن نتصور عالماً بلا شعر وجمال ؟ انه لعمري ، لأشبه بعالم مؤلف من أناس بلا شعر وجمال ، بحيث إذا ما أزلنا البشر من الكون ، فاننا بلا شك نزيل الجمال ، فنكون كمن يسمل العيون التي بدونها لا نور ولا ألوان . ان التجاوب بين النظر والنور والألوان يشكل مظهر الجمال الذي ينعكس في داخلنا مع التوافق في الفكر والحواس والشعور .

ان وصف الجمال بهذا الشكل ليس قاعـدة ، انما هو مجرد نظرة ، ذلك أن العلماء والمفكرين لم يتوصلوا بعد الى توحيد فكرة الجمال . لقـد ربط بعض المفكرين الانكليز الجمال بالمنفعة ، واعتبر هذا الربط صورة للخير. فكان «كانت Kant » معارضاً عنيفـــاً للقائلين بهذه النظرية ، فرد الجمـــال الى كونه لعبـــة مجردة من خيالنـــا وحواسنا . وسانده «شيلر — Schiller » بقوله «ان الفن ، في حد ذاته وفي جوهره ، لعبـة ، مجرد لعبة ، ذلك أن الفنان ، عوضاً عن أن يتمسك بالحقائق المادية التي هي ميدان العلم يفتش عن المظاهر في شتّى صورها وألوانها . فالفن الأسمى هو الذي يصل في لعبته الى الذروة ، ومن الغرابة بمكان أن هذه الذروة مرتبطة بأعمق ذواتنا ، وعلى غراره ، الشعر ، لا سيما الشعر المسرحي على الطريقة الشكسبيريه» .

وهكـذا ، نجد نظرية « Kant » من جهـة ، ونظرية شيلر من جهة ثانية ، تلتقيـــان ، ونظريـــة «هربرت سبنسر — Spencer » ، الذي يقول ان ثمة تشابهاً بين اللذة الناجمة عن الجمال ولذة اللعب ، كذلك مدرسة « شوبنهور Schopenhauer» تعتبر الفن نوعاً من اللعب الرفيع الضروري لعزاء الانسان ، وهو الطريق لتحررنا الكامل من الوجهة المناقبية . لكن فصل الفن عن الحقيقة والواقع والمنفعة والخير من جهة ، لربطه بالتأمل الصافي واللعب مهما كان عالي المستوى ، من جهة ثانية ، انما هو تجاهل ، في نظر البعض ، للطـــابع الجدّي والرصين للفن الحيوي الرفيع .

ان تلك لمعضلة أولية تعترض سبيل كل من يهتم ويهمه حاضر الفن ومستقبله ، وبنوع خاص ، كل من يعنى بمصير الشعر ، الشعر ليس في الغرب حيث تقلصت دائرته وحسب ، انما في الشرق العربي أيضاً .

لذة الجمـال ولذة اللعب

ان للمدرسة الانكليزية فضلا في ابراز ناحية هامة في مسألة الفن والشعر . وهذه تتعلق بدور اللعب في تطور المخلوقات . فالحيوانات المنحطة جداً ، في نظرها ، لا تلعب قط . وهل صحيح هذه الحيوانات لا تلعب ؟ أما المخلوقات التي تسنّى لها عيش أفضل ، ومن جرائه نمو أفضل ، فانها تجد فرصاً للعب .

يقول سبنسر هنا «ان الطاقة الكامنة تنتظر الاشارة لتتحرك ، لتنفجر . والاشارة هذه يجب أن تكون تعبيراً عن فعل ما . وأسوة بالحيوانات التي تمارس بغريزتها بعض الألعاب الرتيبة أو ما يشبه الألعاب ، والقرد بنوع خاص كونه يتمتع بغريزة تقلّد من يرى من حيوان وانسان ، فان البشر آخذون ، منذ أقدم العصور ، بتنمية موهبة اللعب . فالأولاد يلعبون لعبة الحرب والدمى . ويجد الانسان لذة في الانتصار ، أكان في اللعب أم في أي عمل آخر» . والرجال عنوا بالألعاب الرياضية ، وأحد مظاهر هذه العناية تاريخياً ، تأسيس دورة الألعاب الأولمبية العالمية في اليونان في ابّان العصر اليوناني . كما وأن حب الانتصار هو كالانتصار نفسه هدف أسمى لكل مصارع .

ان الكائن الحي في صراع دائم ، لا بل ، هو جزء من هذا الصراع الذي يتجلّى في مختلف الميادين ، في أماكن العمل ، في صف الدراسة في الصالونات ، في الحياة اليومية . والشعوب حتّى في طريقة رقصها وأناشيدها وخطبها واعلامها ، انما تعبّر ، في الحالات الناشئة عن السلم ، عن حبها للحرب والصراع . فالانسان يواجـــه صراعاً مثلثاً ، صراعاً مع نفسه ومع الطبيعة ومع الناس الذين يحتك بهم في حياته . كذلك فان حياة الشعوب وصراعها مع الوجود لتعبير عن تنازع البقاء . تلك ، بايجاز ، المبادىء العامة لنظرية النشوء والارتقاء في المسائل الجمالية .

ورغم ذلك ، فانها تواجه أكثر من اعتراض . فاذا كان كل فن لعبة ، وكل لعبـــة ليست بالضرورة فناً ، فكيف نستطيع أن نميز الواحدة عن الأخـــرى ؟ يقـــول « غرنت ألـــن Grant Allen » في هـذا الصـدد : « كـــل ما هو ليس فناً من أجل الفن يتجرد من الجمال ، ويمكننا أن نعجب بشيء أو عمل رفيع مصنوع بدقة دون أن يكون في هذا الشيء أو العمل أي مظهر من مظاهر الجمال . فالصناعة والفن يسيران في خطين معاكسين بعضهما لبعض» .

وثمة من يقـــول أن الجمال لا ينحصر في جدوى الأشياء . فالنّحات يحفر الصخر أو الرخام بأزميله تماماً مثلما يداعب الليث طابة من الخشب في قفصه . ان الشيء الجميل قد لا يلبّي حاجة ولا يثير فينا رغبة أو مهابة ، إذ أن ما هو حقيقي وحيوي يبعد بحد ذاته الجمال .

ان الاشتهاء والحب يولّدان فينا نوعاً من الاعجاب . أوليس الاعجاب نوعاً من الحب في مستهلّه ؟ ومن ثم ، ألا يجد في الحب ضالته المنشودة ؟ ان اعتبار الحس الجمالي بمعزل عن الغريزة الجنسية وتطورها لاعتبار سطحي تماماً ، انه كاعتبار الحس المناقبي بمنأى عن غرائز الاستلطاف . وتوجد في الشهوة لذة إذ أن طور الاشتهاء يجعل الانسان يعاني ، دون أن يعي ، لذة تفوق اللذة نفسها عندما يمارسها . من هنا نجمت لذة الشاعر الـذي يطمح في أن يعيش في آن حياة جميع الناس ، وهو يحياها الى حد ما ، لكنه غالباً ، ان لم نقل دائماً ، يصطدم بخيبة مريرة تسبب له الألم ، ذلك الذي يقاسيه كل شاعر كبير .

يقول أرسطوطاليس «ان الفن يطهر الآلام من أدرانها» . لكن الفن لا يثير الحب أيضاً ، فيحوله الى وله وشغف ويقول «بيل» في هذا المجال انه كان مولعاً بامرأة حتى العبادة ، فضاعفت الموسيقى شوقه وحنينه اليها ، ومن هنا خلص الى أن للفن تأثيراً كبيراً على الحب . ثم يستطرد مستدركاً «ان اللحن الموسيقي عينه أثار في نفسه ، لسنة خلت ، الحمية للقتال» . هذه الظاهرة تدل دلالة واضحة على أن النظرة الى الجمال كجمال ، والى الفن كفن ، ليست نظرة موحدة عموماً . انها ترتكز الى حد بعيد على ذهنية الانسان وتكوينه الثقافي وطبائعه والبيئة التي نشأ فيها أو يعيش وسطها . وهنا أتذكر ذلك الأديب الذي قال لفتاة جبلية صادفها في حقل وهو يتأمل جمال مناظر الطبيعة ، «كم هي جميلة هذه الزهور !» ، فأجابت الفتاة : لكنها لا تصلح للأكل .

إنّ وحدانية الجمال غير موجودة أصلا ، لا بل ، غير متفق عليها . فكم من ظاهرة ترينا الجمال في القبح ، والعكس بالعكس . ان الطبيب أو طالب الطب الذي يقوم بتشريح جثة يجـد لذة وجمالا في الاجادة في عملـه فيتتبع خيوط الاعصاب بمهارة مبضعه . كذلك ، فان الفنان الذي يرسم صورة قبيحة ويتمكن من الابداع في قبحها ، أي في نقل القبح وتجسيده ، والشاعر الذي يصف مجزرة رهيبة تقشعر لهولها الأبدان ، فيبدع في وصفها . هؤلاء نماذج ممن ينقلون القبح الى جمال ، أو يجدون في القبح متعة لا يجدها فيه سواهم .

من هنا نخلص الى أن مفاهيم الجمال تختلف حتماً باختلاف الناس وعلى اختلاف البيئات والعصور . كذلك فهي تختلف في مصادرها ، فاذا كانت ناجمة عن الحركة شيء ، واذا كانت وليدة الحواس شيء آخر . لكن «سبنسر وألن» علّلا اللذة الجمالية ، كما مرّ بنا ، بلعبة تقوم بها أعضاؤنا بمعزل عن كل فائدة . فالتحسس الجمالي عند رؤية لون جميل أو منظر رائع يبدو هامشياً لا يؤثر بصورة فعلية وظاهرية على سير الحياة العام وتطورها . وذلك ، عكس الحركات التعبيرية ، كالفرح والغيرة والعواطف في كل أشكالها ، كالحب مثلا ، فانها تنبع من صميم الوجدان . والفارق بين الاثنين أن التحسس الجمالي ظرفي سرعان ما يزول كما تزول معالم الأمواج في حين أن الحركات التعبيرية تأتي من قاع البحار ، فتشكل تياراً جامعاً .

كان الأقدمون يعانون الشعور الجمـالي في حواس السمع والشم والمذاق . وللعطور كالأقوال الرنانة الجميلة تأثير قوي فعال . وصنع العطور أيضاً نوع من الفن ، لكن تأثير الروائح الزكية ، وان يكن له مفعول في الانسان يأتي دون تأثير الموسيقى .

مع ذلك ، فان معزوفة موسيقية لبتهوفين على مسمع انسان لا عهد له بالموسيقى سيكون تأثيرها عليه مماثلا لنظرة يلقيها على لوحة فنية للفنان ميكلنجلو ، أي لـن يكون ثمة تأثير على هذا الانسان البدائي مثلما هو تأثيرها على الانسان المثقف الذي مهّدت له ثقافته لتذوق الفن في مختلف أشكاله .

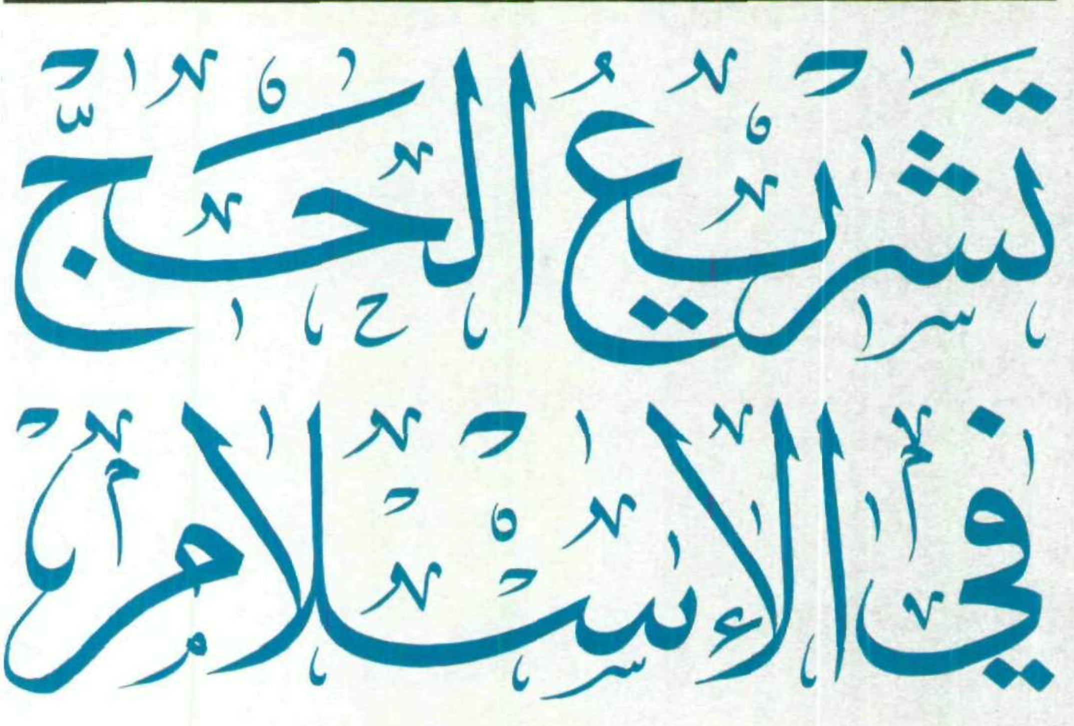
إلاّ أن ثمة عاملا يطغى هنا . ألا وهو عامل المنظر كما يقول ديكارت : «ان الجمال هو كل ما هو ممتع بالنسبة الى العيون» . غير أن الشعراء درجوا على أن يكونوا أقل تنظيماً من الفلاسفة ، وربما كانت الفوضى فضيلة الشعراء الحقيقيين ، الفوضى في كل شيء ما عدا في الشعر . والشعر لا يبـدو أكثر من كلمات مختارة منمّقة ، هدف ايقاعها ووزنها احد ث رنين يؤثر على الأذن فالقلب . إذ أن العامل الجمـالي بالنسبة الى الأذن هو الايقـاع ، والايقـاع أو الوزن هـو التعبير المبـاشر الرنان للشعور . ان قـوة الخطيب في أوجهـا تكمن في الايقاع والوزن ، كذلك في الفـن المسرحي . فالألم المعبر عنه بالصراخ يؤلمنا أو يؤثر فينا عادة أكثر من تعابير الوجه . أما الأغاني ، فهي ، على حد تعبير سبنسر ، ليست سوى ايقاع في امتداد . انها الصوت البشري الذي يتكيّف بالاحتكاك مع العواطف .

وهكذا ، يعلّل البعض كون الفن والشعر انسجـاماً بين الحواس والأفكار والعواطف . فالانفعالات الجمالية هي عادة مجاورة بعضها لبعض ، فهي تارة شعور متزايد وأساسي في الحياة الطبيعية ، وطوراً عواطف ساميـة تبلغ أرقى مستويات الضمير المناقبي . ومهمة الشاعر أو الفنان تفرض عليه بأن يوقظ أعمق الأحاسيس الكامنة في ذواتنا من جهة ، وأنبل الشعور المناقبي والأفكار المتسامية في عقولنا من جهة ثانية ، وإلا بطل أن يكون شاعراً أو فناناً .

فالفن إذن ، يجب أن يهز مشاعرنا بصرف النظر عن ما هيتها الروحية والجسدية . عندئذ ، يكون فناً واقعياً مادياً وفي الوقت نفسه يسدّد أوفر نصيب لعواطفنا وأفكارنا . وما تنسب اليه السطحية في الفن هو دور الخيال في سبيـل الخيال ، دون أن يكون لهذا الدور أي تأثير على شعورنا وعواطفنا وأفكارنا .

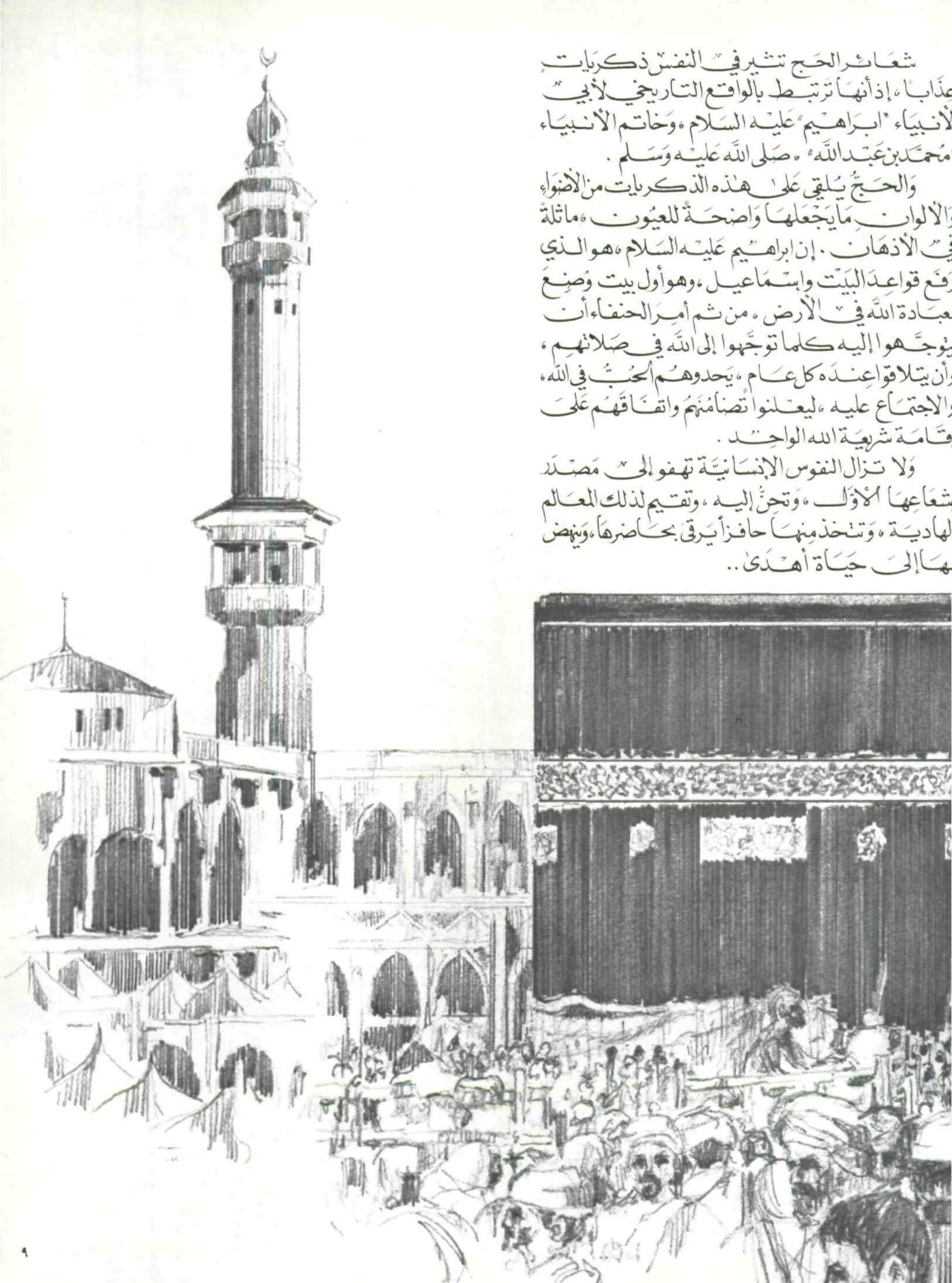
وفي حين أن الفن الصحيح يهز كياننا فيضفي عليه لذة ، كذلك ، تبدو الحياة تفعل للغاية نفسها . فالمتعة ، وهي ما يعبّر عنهـا باللذة الجسدية ، تتحول رويداً رويداً عندما تزاوج الأفكار المناقبية ، الى لذة جمالية . انها في بدايتها موجودة عند المخلوقات المنحطة . فالحيوان لا يميّز بين اللذة والجمال . والانسان الذي لا يتأثر باللذة الجمالية اللهم اذا كانت مستوفية الشروط معناه أن الحيوانية لا تنفك تهيمـن على كيانه . كما وأن الفن والشعر وما يصبان من لذة ثقافية ليسا دائماً على المستوى المنشود حقاً ، مما يضع اللائمة على باعثيهما أكثر ممن افترض فيهم تلقيهما ●

سـليم واكيـم – بيروت



بقلم: الدكتور أحمد جمال العمري

سركيس



شعائر الحج تثير في النفس ذكريات
عذابا ، إذ أنها ترتبط بالواقع التاريخي لأبي
الأنبياء "ابراهيم" عليه السلام ، وخاتم الأنبياء
محمد بن عبد الله" ، صلى الله عليه وسلم .

والحج يلقي على هذه الذكريات من الأضواء
والألوان ما يجعلها واضحة للعيون ، ماثلة
في الأذهان . إن ابراهيم عليه السلام ، هو الذي
رفع قواعد البيت وإسماعيل ، وهو أول بيت وضع
لعبادة الله في الأرض ، من ثم أمر الحنفاء أن
يتوجهوا إليه كلما توجهوا إلى الله في صلاتهم ،
وأن يتلاقوا عنده كل عام ، يحدوهم الحب في الله ،
والاجتماع عليه ، ليعلنوا تضامنهم واتفاقهم على
إقامة شريعة الله الواحد .

ولا تزال النفوس الإنسانية تهفو إلى مصدر
إشعاعها الأول ، وتحن إليه ، وتقيم لذلك المعالم
الهادية ، وتتخذ منها حافزاً يرقى بحاضرها ، وينهض
بها إلى حياة أهدى ..

وَلَقَد جاشت نفس المصطفى صلى الله عليـه وسلم ، وانفعلت بهذه الذكريات ، فبكى وهو عند الكعبة ، وقال : يا عمر . . هنا تسكب العبرات . . انها كانت حجة الوداع . .

الحج ؟ . . وما الأصـل في مشروعيته ؟ وما أركانه ؟ وما واجباته ؟ متى فرض ؟ . . وعلى من يجب ؟ وما شروط وجوبه ؟ ما رأي الفقهاء في شرط الاستطاعة ؟ اذا مات الرجـل ولم يحج فهل يجب أن يحج عنه ؟ هل وجوب الحج على سبيل الفور أم التراخي ؟ وما رأي الفقهاء في ذلك أي أنواع الحج أفضل . . الافراد . . أم التمتع . . أم القران ؟

ماذا شرع الفقهاء لمن أراد الحج أو العمرة ؟

مـا الحـج ؟

الحج في اللغة : القصد ، وكثرة الاختلاف والتردد ، تقول العرب : حج بنو فلان فلاناً : اذا قصدوه ، وأطالوا الاختلاف اليه ، والتردد عليه . . قال الخليل بن أحمد الفراهيدي : الحج كثرة القصد الى من تعظمه ، ورجل محجوج أي مقصود ، ومنه المخبل السعدي :

ألم تعلمي يا أم أسعد أنما
تخاطأني ريب المنون لأكـبرا
وأشهد من عوق حلولا كثـيرة
يحجون سبَّ الزبرقان المزعفرا

فقوله : يحجون يعني : يكثرون قصـده ، والاختلاف اليه ، والتردد عليه ، والسب — بالكسر — العمامة . وعنى بكونهم يحجون عمامته ، أنهم يحجونه ، فكنى عنه بالعمامة .

والحاجّ . . من يحجّ البيت الحـرام ، والجمع حجّـاج وحجيج ..

والحج شرعاً : قصد مكة لعمل مخصوص في وقت مخصوص ، أي لأداء عبادة الطواف والسعي ، والوقوف بعرفة ، وسائر المناسك ، استجابة لأمر الله ، وابتغاء مرضاته ، في وقت مخصوص : أي القصد في أشهر معلومات الى البيت الحرام للنسك والعبادة . وسمي السفر الى البيت حجاً دون ما سواه . والحج — بالفتح والكسر لغتان .

والحج الأكبر : هو الذي يسبقه الوقوف بعرفة ، وفي التنزيل العزيز «**وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحجّ الأكبر**»[1] . ويقال يوم النحر . . ويوم عرفة .

والحج الأصغر : الذي ليس فيه وقوف بعرفة . . ويسمى العمرة .

لماذا أُخر تشريع الحجّ عن بقية الفروض ؟

قال الفقهاء : لقد شاءت حكمته — جل وعلا — تأخير الحج عن الصلاة والزكاة والصوم ، لأن الصلاة عماد الدين . ولشدة الحاجة اليها لتكررها كل يوم خمس مرات ، ثم الزكاة لكونها قرينة لها في أكثر المواضع ، ولشمولها المكلّف وغيره ، ثم الصوم لتكرره كل سنة .

والحج حكماً : أنـه أحد أركان الاسلام ، ومبنى من مبانيه العظام ، من جحد وجوبه عالماً كفر ، وان كان جاهلا عرّف ، فان أصر بعد التعريف كفر . وهو فرض كفاية مـرة ، فمن زاد فهو تطوع . والدليل على أنـه احدى الدعائم الخمس التي بني عليها الاسلام . . حديث ابن عمر المتفق عليه . قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — «بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان» وهذا لفظ البخاري .

وَقَد جاءت أول اشارة للحج في القرآن العظيم ، في قوله تعالى : «**وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق**»[2] . والخطاب في قوله تعالى : «**وأذن في الناس بالحج**» لابراهيم ، كما هو ظاهر من السياق ، وهو قول الجمهور ، خلافاً لمن زعم أن الخطاب لنبينـا ، صلى الله عليه وعلى ابراهيم وسلم ، وممن قال بذلك : الحسن ، ومال اليه القرطبي . فقوله سبحانه «**وأذن في الناس بالحج**» أي وأمرنا ابراهيم أن أذن في الناس بالحج ، أي أعلمهم وناد فيهم بالحج ، أي بأن الله أوجب عليهم حج البيت الحرام .

ذكر المفسرون ، أنه لما أمره ربـه ، أن يؤذن في الناس بالحج قال : يا ربّ . . كيف أبلغ الناس ، وصوتي لا ينفذهم ؟ فقال : نـاد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل : على الحجر ، وقيل على الصفا ، وقال : يا أيها الناس : ان ربكم قد اتخذ بيتاً فحجّوه . فيقال : ان الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنـه يحج الى يوم القيامة .

ففي هذه الآية ، كما قال أهل العلم ، دليل على وجوب الحج ، ووجوب الحج بها على هــذه الأمة ، مبنى على أن شرع من قبلنا شرع لنا .

وَلَقَد دلت آيات أخر ، في الذكر الحكيم ، على أن الايجاب المذكور على لسان ابراهيم عليه السلام ، وقع مثله أيضاً على لسان نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، كقوله سبحانه : «**ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين**» وقوله جل شأنه : «**وأتموا الحج والعمرة لله**» . وقوله تعالى : «**ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم**» .

مـا الأصل في مشروعية الحج ؟

الأصل في مشروعيته ووجوبه . . الكتاب . . والسنة والاجماع . فأما دليل وجوبه من كتاب الله . فقوله تعالى : «**ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا**» وقوله سبحانه : «**وأتموا الحج والعمرة لله**» .

وأما دليل وجوبه من السنة . . فالأحاديث كثيرة من ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : «خطبنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا» فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله (ص) : «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» ثم قال : ذروني ما تركتم ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شيء فدعوه» .

وَعَن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال «خطبنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا أيها الناس كتب عليكم الحج . فقا الأقرع بن حابس فقال : أفي كل عام يا رسول الله

فقال : لو قلتها لوجبت لم تعملوا بها ، ولم تستطيعوا أن تعملوا بها . . الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع»[3]

وأما الاجماع . . فقد أجمعت الأمة على وجوب الحج على المستطيع في العمر مرة واحدة .

وَهُنَا نتساءل : ما حكم العمرة ؟ ولماذا جاء عطفها على الحج في قول الحق «**وأتموا الحج والعمرة لله**» . قال أهل العلم : انها واجبة لقوله تعالى : «الآية» فانه عطفها على الحج ، والأصل التساوي بين المعطوف والمعطوف عليه ، ولحديث عائشة : «يا رسول الله : هل على النساء جهاد ؟ قال : نعم عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة»[4] .

وعن أبي رزين العقيلي : أنه أتى النبي «ص» فقال : ان أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن . قال : «حج عن أبيك واعتمر»[5] .

وروي عن جابر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن العمرة أواجبة هي ؟ قال : «لا ، وان تعتمر فهو أفضل» وهذا القول عندي أنه أرجح من الأول ، ويعضده اقتصاره جل وعلا على الحج في الآية الكريمة «**ولله على النـاس حج البيت من استطاع اليه سبيلا**» وحديث ابن عمر : «بني الاسلام على خمس . . » الحديث .

وَقَد وردت في فضل الحج والعمرة والترغيب فيهما أحاديث كثيرة : منها ، ما جاء في أنه من أفضل الأعمال . .

عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله «ص» : أي الأعمال أفضل ؟ قال : «ايمان بالله ورسوله» قيل : ثم ماذا ؟ قال : «جهاد في سبيل الله» قيل : ثم ماذا ؟ قال «حج مبرور»[6] .

والحج المبرور هو الحج الذي لا يخالطه اثم أو يشوبه معصية أو ذنب . وروي مرفوعاً : أن بره اطعام الطعام ولين الكلام . وقال الحسن : أي يرجع زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرة .

ومنها ، ما جاء في أنه جهاد . . عن الحسن ابن علي ، رضي الله عنهما ، أن رجلا جاء الى النبي «ص» فقال : اني جبان ، واني ضعيف ، فقال : «هلم الى جهاد لا شوكة فيه : الحج»[7] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «جهاد الكبير والضعيف والمرأة : الحج»[8] .

وعن عائشة قالت : قلت يا رسول الله نرى الجهاد أفضل الأعمال ، أفلا نجاهد ؟ قال : «لكن أفضل من الجهاد : حج مبرور»[9] .

وَمنهَا ، ما جاء في أنه يمحق الذنوب . . عن ابن مسعود رضي الله عنه : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : «تابعوا بين الحج والعمرة ، فانهما ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب الا الجنة»[10] . وقوله : «تابعوا» — أي والوا بينهما — واتبعوا أحد النسكين الآخر ، بحيث يظهر الاهتمام بهما .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله «ص» : «من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[11] . أي من حج فلم يجامع أو يعص . . رجع بلا ذنب . ومنها ما جاء في أن الحجاج وفد الله . . عن أبي هريرة أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : «الحجّاج والعمّار وفد الله ، ان دعوه أجابهم ، وان استغفروه غفر لهم»[12] . ومنها ما جاء في أن الحج ثوابه الجنة . . روى ابن جريج عن جابر — رضي الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا البيت دعامة الاسلام فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر ، كان مضموناً على الله ان قبضه أن يدخله الجنة ، وان ردّه ، ردّه بأجر وغنيمة .

وروى البخاري ومسلم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : «العمرة الى العمرة كفّارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة» .

مَا هِيَ أركَانُ الحَجِّ ؟ وَمَا هِيَ وَاجبَاتُه ؟

أركان الحج أربعة :

الأول : الوقوف بعرفة لحديث «الحج عرفة»[13] .

الثـاني : طواف الزيارة ، أو القدوم ، لقوله تعالى «**وليطوفوا بالبيت العتيق**»

الثالث : الاحرام — وهو نية الدخول في النسك ، فلا يصح بدونها لحديث «انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى» .

الرابـع : السعي بين الصفا والمروة . لحديث عائشة : طاف رسول الله «ص» وطاف المسلمون ، يعني بين الصفا والمروة ، فكانت سنة ، «فلعمري ما تم الله حج من لم يطف بين الصفا والمروة»[14] . ولحديث : «أسعوا فان الله كتب عليكم السعي»[15] .

أمـا واجبـاتـه :

فأولها : الاحرام من الميقات .

والثـاني : وقوف من وقف بعرفة نهاراً الى غروب الشمس من يوم عرفة ، ولو غلبه نوم بعرفـة .

والثالث : المبيت بمزدلفة الى بعد نصف الليل ان وافى مزدلفة قبل نصف الليل .

والرابـع : المبيت بمنى ليالي أيام التشريق لفعله عليه الصلاة والسلام وأمر به .

والخامس : رمي الجمار مرتباً .

والسادس : الحلق أو التقصير ، لأن الله تعالى وصفهم بذلك وامتن به عليهم فقال : «محلقين رؤوسكم ومقصرين» ولأن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أمر به فقال : «فليقصّر ثم ليحلل» ودعا للمحلقين ثلاثاً ، وللمقصرين مرة[16] .

وفي حديث أنس : أن النبي «ص» أتى منى

---

(1) سورة التوبة 3
(2) سورة الحج 27
(3) رواه أحمد والنسائي بمعناه
(4) رواه أحمد وابن ماجة
(5) رواه الخمسة وصححه الترمذي
(6) متفق عليه
(7) رواه الطبراني
(8) رواه النسائي
(9) رواه البخاري
(10) رواه النسائي والترمذي
(11) رواه البخاري ومسلم
(12) رواه النسائي وابن ماجة
(13) رواه أبو داود
(14) رواه مسلم
(15) رواه أحمد وابن ماجة
(16) متفق عليه

فأتى الجمرة فرماها ، ثم أتى منزله بمنى ونحر ، ثم قال للحلاق : خذ وأشار الى جانبه الأيمن ثم الأيسر ، وجعل يعطيه الناس[١٧] .

السابع : طواف الوداع . لحديث ابن عباس : أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الا أنه خفف عن الحائض[١٨].

متى فرض الحج ؟

قال بعض العلماء انه فرض عام ست من الهجرة. وقال بعض آخر : انه فرض سنة تسع من الهجرة . ولكنهم اتفقوا جميعاً على أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لم يحج سوى حجة واحدة ، بعد هجرته الى المدينة ، وهي حجة الوداع ، ولا خلاف في أنها كانت سنة عشر من الهجرة . . وسنتعرض لهذا الأمر بعد قليل . . وهنا قد يتبادر الى الذهن سؤال هام . . اذا كان الحج فرض سنة ست أو سنة تسع . . فما سبب تأخيره ، صلى الله عليه وسلم ، الحج الى سنة عشر مع تمكنه وقدرته عليه ؟

نقول : ان عام تسع — كان عام فتح مكة وانتصار المسلمين — وفي هذا العام لم يتمكن النبي «ص» وأصحابه من منع المشركين من الطواف بالبيت وهم عراة ، وقد بيّن الله تعالى في كتابه أن منعهم من قربان المسجد الحرام انما هو بعد ذلك العام ، الذي هو عام تسع ، وذلك في قوله تعالى : **«يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» .** وعامهم هذا هو عام تسع ، فدل على أنه لم يمكن منعهم عام تسع ، ولذا أرسل النبي صلى الله عليه وسلم علياً ، كرم الله وجهه ، بعد أبي بكر ينادي ببراءة . . وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا عريان .

فلو بادر صلى الله عليه وسلم الى الحج عام تسع ، لأدى ذلك الى رؤيته المشركين يطوفون بالبيت وهم عراة ، وهو لا يمكنه أن يحضر ذلك ، ولا سيّما في حجة الوداع التي يريد أن يبين للناس فيها مناسك حجهم ، فأول وقت أمكنه فيه الحج صافياً من الموانع والعوائق بعد وجوبه العام العاشر ، وقد بادر بالحج فيه . وقال بعض العلماء[١٩] : «يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم أخر الحج ، لأن الله أطلعه على أنه لا يموت حتى يحج ، فيكون على يقين من الادراك ، أو لاحتمال عدم الاستطاعة ، أو حاجة خوف في حقّه منعه من الخروج ، ومنع أكثر أصحابه خوفاً عليه» .

على من يجب الحج ؟ وما هي شروط وجوبه ؟

أجمع العلماء . . على أن الحج لا يتكرر ، وأنه لا يجب في العمر الا مرة واحدة ، الا أن ينذره فيجب الوفاء بالنذر ، وما زاد فهو تطوع .

قال الفقهاء . . ويجب الحج ، وجوب عين ، على كل مسلم عاقل حرّ مكلّف مستطيع . . وتزيد المرأة شرطاً سادساً : وجود محرم .

ولا يجب الحج على ثلاثة . . حددهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بقوله : «رفع القلم عن ثلاثة ، عن الصبي حتى يبلغ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق» .

فالصبي لا يجب عليه الحج وان كان يصح منه ، لما روى ابن عباس ، رضي الله عنهما ، «ان النبي صلى الله عليه وسلم ، ركب بالروحاء فقال : من القوم ، قالوا : المسلمون ، فقالوا : من أنت ؟ قال : رسول الله . فرفعت اليه امرأة صبياً ، فقالت : ألهذا حج ؟ قال : نعم ولك أجره»[٢٠] . وعن السائب ابن يزيد . قال : «حج بي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، في حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين»[٢١] .

وهنا نقف قليلا لالقاء الضوء على عناصر هذا الوجوب . .

لقد اشترط الفقهاء في وجوب الحج شروطاً . . وهي : العقل والبلوغ والاسلام والحرية والاستطاعة .

أما العقل : فكونه شرطاً في وجوب كل تكليف واضح ، لأن غير العاقل لا يصح تكليفه بحال .

وأما اشتراط البلوغ . . فواضح لأن الصبي مرفوع عنه القلم حتى يحتلم ، كما جاء في الحديث ، فالبلوغ والعقل كلاهما شرط وجوب .

أما الاسلام : فالظاهر أنه على القول بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، فهو شرط صحة لا شرط وجوب . وعلى أنهم غير مخاطبين بها ، فهو شرط وجوب ، والأصح خطاب الكفار بفروع الشريعة ، وعلى ذلك فيكون الاسلام شرط صحة في حقهم . ومعلوم أنه على كونه شرط وجوب ، فهو شرط صحة أيضاً ، لأن بعض شروط الوجوب ، يكون شرطاً في الصحة أيضاً ، كالوقت للصلاة ، فانه شرط لوجوبها وصحتها كذلك .

وقد يكون شرط الوجوب ليس شرطاً في الصحة كالبلوغ والحرية ، فان الصبي لا يجب عليه الحج مع أنه يصح منه لو فعله ، الا أنه لا يجزىء عن حجة الاسلام ، الا اذا كان بعد البلوغ .

وأما الحرية . . فهي شرط وجوب ، فلا يجب الحج على العبد . واستدل العلماء على عدم وجوب الحج على العبد بأمرين : الأول : اجماع أهل العلم على ذلك ، ولكنه اذا حج صح حجه ، ولم يجزئه عن حجة الاسلام ، فان عتق بعد ذلك فعليه حجة الاسلام[٢٢] .

الأمر الثاني : حديث رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : قال رسول الله «ص» : «أيما صبي حج ثم بلغ فعليه حجة الاسلام ، وأيما عبد حج ثم عتق فعليه حجة الاسلام»[٢٣] . وأخرج البيهقي في سننه . عن ابن عباس قال : قال رسول الله «ص» أيما صبي حج ثم بلغ الحنث فعليه أن يحج حجة أخرى ، وأيما اعرابي حج ثم هاجر فعليه حجة أخرى ، وأيما عبد حج ثم عتق فعليه حجة أخرى»[٢٤] .

وأما الاستطاعة ، فقد نص تعالى على اشتراطها في قوله عز وجل : **«ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا»** . ومعنى الاستطاعة في اللغة العربية معروف . .

وفي تفسير الاستطاعة في الآية الكريمة اختلف العلماء :

فالاستطاعة في مشهور مذهب مالك — الذي به الفتوى — هي امكان الوصول بلا مشقة عظيمة زائدة على مشقة السفر العادية ، مع الأمن على النفس والمال . ولا يشترط عندهم الزاد والراحلة ، بل يجب الحج عندهم على القادر على المشي ، ان كانت له صنعة يحصل منها قوته في الطريق .

وقال مالك ، في كتاب محمد ، لما سئل عن قوله تعالى : **«من استطاع اليه سبيلا»** أذلك الزاد والراحلة ؟ قال : لا والله ، ما ذلك الا طاقة

الناس ، الرجل يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على المسير ، وآخر يقدر أن يمشي على رجليه ، ولا صفة في هذا أبين مما قال الله تعالى : **«من استطاع اليه سبيلا»** . . وربّ صغير أجلد من كبير ، ثم قال : فمن قدر على الوصول الى مكة ، اما راجلا بغير كبير مشقة ، أو راكباً بشراء أو كراء . . فقد وجب عليه الحج .

والاستطاعة عند أبي حنيفة . . الزاد والراحلة ، فلو كان يقدر على المشي ، وعادته سؤال الناس ، لم يجب عليه الحج . هكذا قال النووي .

والاستطاعة في مذهب الشافعي . . الزاد والراحلة ، بشرط أن يجدها بثمن المثل ، فان لم يجدها الا بأكثر من المثل سقط عنه وجوب الحج . ويشترط عند الشافعية أيضاً وجود الماء في أماكن النزول ، وهذا شرط لا ينبغي أن يختلف فيه ، لأنه ان لم يجد الماء هلك — واشترط الشافعية أيضاً — أن يكون صحيحاً لا مريضاً ، وقالوا ان المرض الذي يشق معه السفر مشقة فادحة مسقط لوجوب الحج .

والاستطاعة عند أحمد . . هي الزاد والراحلة .

وهنا نقف قليلا لنناقش قضية الاستطاعة فنقول :

إنّ الذين فسروا الاستطاعة بالزاد والراحلة حجتهم الأحاديث الواردة عن النبي ، صلى الله عليه وسلم بتفسير الاستطاعة في الآية الكريمة بذلك . . منها حديث الحسن قال : لما نزلت **«ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا»** قال رجل: «يا رسول الله . . وما السبيل ؟ قال : زاد وراحلة»[٢٥] . ومنها حديث ابن عباس : «قيل يا رسول الله الحج كل عام ؟ قال : لا بل حجة. قيل : فما السبيل اليه ؟ قال : الزاد والراحلة».

هذا عن المستطيع بنفسه . . أما ما يسمونه المستطيع بغيره فهو نوعان :

الأول منهما : وهو من لا يقدر على الحج بنفسه ، لكونه زمناً أو هرماً ، ونحو ذلك ، ولكنه له مال يدفعه الى من يحج عنه ، فهل يلزمه الحج نظراً الى أنه مستطيع بغيره ؟ فيدخل في عموم **«من استطاع اليه سبيلا»** أو لا يجب عليه الحج لأنه عاجز ، غير مستطيع بالنظر الى نفسه .

بالقول الأول .. قال الشافعي وأصحابه ، فيلزمه عندهم أجرة أجير يحج عنه بشرط أن يجد ذلك بأجرة المثل . قال النووي : وبه قال جمهور العلماء منهم علي بن أبي طالب والحسن البصري والثوري وأبو حنيفة . وقال مالك : لا يجب عليه ذلك ، ولا يجب الا أن يقدر على الحج بنفسه ، واحتج مالك بقوله تعالى : **«وأن ليس للانسان الا ما سعى»** . واحتج القائلون بوجوب الحج عليه بأحاديث رواها الجماعة . . منها : ما رواه البخاري عن ابن عباس قال : «جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع قالت : يا رسول الله : ان فريضة الله أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة ، فهل يقضي عنه أن أحج عنه ؟ قال : نعم» . ومنها : ما رواه أبو داود في سننه : «قال رجل من بني عامر : يا رسول الله : ان أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن ، قال : أحجج عن أبيك واعتمر» .

أما النوع الثاني ، من نوعي المستطيع بغيره ، فهو من لا يقدر على الحج بنفسه ، وليس له مال يدفعه لمن يحج عنه ، ولكن له ولد يطيعه اذا أمره بالحج ، والولد مستطيع ، فهل يجب الحج على الوالد ويلزمه أمر الولد بالحج عنه؟ لأنه مستطيع بغيره.

هذا الموضوع كان محل خلاف بين أهل العلم ..

قال النووي ، في شرح المهذب ، «فرع في مذاهبهم في المعضوب[٢٦] ، اذا لم يجد مالا يحج به غيره ، فوجد من يطيعه ، فقد ذكرنا أن مذهبنا وجوب الحج عليه» . وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد : لا يجب الحج عليه ، واحتج مالك بقوله تعالى : **«وأن ليس للانسان الا ما سعى»** وبأنه عاجز بنفسه ، فهو غير مستطيع الى الحج سبيلا .

ويرتبط بموضوعنا هذا سؤال هام . . اذا مات الشخص ولم يحج ، وكان الحج قد وجب عليه لاستطاعته بنفسه أو بغيره ، وكان قد ترك مالا . . فهل يجب أن يحج ويعتمر عنه من ماله ؟

من الطبيعي أن يكون هناك خلاف بين الفقهاء حول هذا الموضوع . .

قال الشافعي وأحمد وأصحابهما : يجب أن يحج عنه ، ويعتمر عنه من تركته ، سواء مات مفرّطاً أو غير مفرط لكون الموت عاجله عن الحج فوراً .

وقال أبو حنيفة ومالك . . يسقط بالموت ، فان أوصى بذلك فهو في الثلث وبهذا قال الشعبي والنخعي لأن الحج عبادة بدنية فتسقط بالموت كالصلاة . واحتجوا أيضاً بأن ظاهر القرآن كقوله تعالى : **«وأن ليس للانسان الا ما سعى»** مقدم على ظاهر الأحاديث بل على صريحها .

وقد استدل الشافعي وأصحابه — الذين قالوا بوجوب الحج عنه من رأس ماله — بأحاديث نبوية . . منها ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، ان امرأة من جهينة جاءت الى النبي «ص» فقالت : ان أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : «نعم حجي عنها ، **أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته . . أقضوا الله ، فالله أحق بالوفاء»** .

ففي هذا الحديث دليل على وجوب الحج عن الميت سواء أوصى أو لم يوص ، لأن الدّين يجب قضاؤه مطلقاً ، وكذا سائر الحقوق المالية من كفارة وزكاة .

أما أبو حنيفة ومالك وأصحابهما فقالوا : ان الأعمال البدنية كالصلاة والحج تسقط بالموت فلا وجوب لعمل بعد الموت ، والذي يحج عنه متطوع وفاعل خير . واحتجوا بأن جميع الأحاديث الواردة بالحج عن الميت واردة بعد الاستئذان في الحج عنه . قالوا : والأمر بعد الاستئذان كالأمر بعد الحظر فهو للاباحة ، لأن الاستئذان والحظر الأول كلاهما قرينة على صرف الأمر عن الوجوب الى الاباحة .

وقالوا كذلك ، ان من عاجله الموت قبل التمكن فمات غير مفرط ، فالظاهر لنا أنه لا اثم عليه ، ولا دين لله عليه ، لأنه لم يتمكن من أداء الفعل حتى يترتب في ذمته ، ولن يكلف الله نفساً الا وسعها .

---

(١٧) رواه أحمد ومسلم
(١٨) متفق عليه
(١٩) الأجوبة الفقيه ٢٠٢/٢
(٢٠) رواه أحمد ومسلم وأبو داود
(٢١) رواه أحمد والبخاري والترمذي
(٢٢) أنظر النووي في شرح المهذب
(٢٣) رواه البيهقي والحاكم
(٢٤) رواه البيهقي في الباب الأول من كتاب الحج
(٢٥) أخرجه الترمذي
(٢٦) المعضوب : المريض الزمن الذي لا حراك فيه

واشترط الفقهاء في جميع الأحوال ، أن من يحج عن غيره ، لا بد وأن يكون قد سبق له الحج عن نفسه لما رواه ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، سمع رجلا يقول : لبيك عن شبرمة ، فقال : أحججت عن نفسك ؟ قال : لا ، قال : «فحج عن نفسك ثم حج عن شبرمة»[٢٧] .

الحج واجب مرة في العمر . . هكذا أجمع الفقهاء . . هل هذا الوجوب على سبيل الفور أم التراخي ؟

إختلف أهل العلم في ذلك . . فقال الشافعي وأصحابه : ان وجوبه على التراخي ، أي يمكن تأجيله الى أن تحين فرصة مناسبة . قال النووي : وبه قال الأوزاعي والثوري ومحمد بن الحسن ، ونقله الماوردي عن ابن عباس .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : ان وجوبه على الفور. قال صاحب تبيين الحقائق في الفقه الحنبلي : «وبه قال أبو يوسف . واستشهد على ذلك بما روي عن ابن شجاع ، أن الرجل اذا وجد ما يحج به وقد قصد التزوج ، قال : يحج ولا يتزوج ، لأن الحج فريضة أوجبها الله على عبده . وهذا يدل على أنه على الفور» .

أما مالك : فعنه في هذه المسألة قولان مشهوران : احداهما : أنه على الفور ، والثاني : أنه علـى التراخي . قال خليل بن اسحاق في مختصره في الفقه المالكي ، «وفي فوريته وتراخيه لخوف الفـوات خلاف» . وقال بعض العلماء ، في كلامه على قول خليل : «من لزمه فرض الحج لم يجز له تأخيره ، الا من عـذر ، وفرضه على الفور دون التراخي والتسويف .

فاذا علمنا الآن موقف أهل العلم في هـذه المسألة . . فما هي حججهم في ذلك ؟

أقولُ أما الذين قالوا انه على التراخي كالشافعي وأصحابه ، فاحتجوا بأدلة كثيرة . . منها : أنهم قالوا ان الحج فرض عام ستة من الهجرة ، ولا خلاف في أن آية **«وأتموا الحج والعمرة لله»** الآية . نزلت عام ستة من الهجرة في شأن ما وقع في الحديبية من احصار المشركين رسول الله «ص» وأصحابه ، وهم محرمون بعمرة ، وذلك من ذى القعدة من عام



ستة بلا خلاف ، ويدل على ذلك : حديث كعب بن عجرة ، الذي نزل فيه **«فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك»** وذلك متصل بقوله **«وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ، ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله ، فمن كان منكم مريضاً . .»** الآية . ولذا جزم الشافعي وغيره ، بأن الحج فرض عام ستة . قالوا : واذا كان الحج فرض عام ستة ، وكان النبي «ص» لم يحج الا العام العاشر ، فذلك دليل على أنه على التراخي ، اذ لو كان على الفور لما أخره عن أول وقت للحج بعد نزول الآية . قالوا ولا سيما أنه عام ثمانية من الهجرة فتح مكة في رمضان واعتمر عمرة الجعرانة في ذى القعدة من عام ثمانية ، ثم رجع الى المدينة ولم يحج ، ثم حج صلى الله عليه وسلم هو وأزواجه وأصحابه كلهم سنة عشر حجة الوداع .

وأما الذين قالوا ان وجوب الحج على الفور كأبي حنيفة وأصحابه ، فقد استدلوا على رأيهم بآيات من كتاب الله تعالى يفهم منها ذلك ، وهي على قسمين :

قسم منها ، فيه الدلالة على وجوب المبادرة الى امتثال أوامره جل وعلا والثناء على من فعل ذلك.

وقسم آخر ، يدل على توبيخ من لم يبادر ، وتخويفه من أن يدركه الموت قبل أن يمتثل ، لأنه قد يكون اقترب أجله وهو لا يدري.

أما آيات القسم الأول ، فمن مثل قوله تعالى : **«سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين»** وقوله سبحانه : **«سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض»** . فقوله عز وجل «سارعوا» وقوله **«سابقوا» الى مغفرة** . . فيه الأمر بالمسارعة والمسابقة الى مغفرته ، وجنته جل وعلا . وذلك بالمبادرة والمسابقة الى امتثال أوامره . ولا شك أن المسارعة والمسابقة كلتاهما على الفور — لا التراخي — .

أما آيات القسم الثاني ، فمن مثل قوله عز شأنه : **«فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم»** وقوله تعالى : **«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم»** . فصرح الحق سبحانه بأن أمره قاطع الاختيار ، موجب الامتثال . ومن أدلتهم أيضاً على الوجوب الفوري . . ما رواه الامام أحمد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أراد الحج فليتعجل . ومن أدلتهم كذلك ، ما روي عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : «من لم يحبسه مرض أو مشقة ظاهرة ، أو سلطان جائر . . فلم يحج ، فليمت ان شاء يهودياً وان شاء نصرانياً»(٢٨) .

فهذه الأحاديث وغيرها ، مع تعددها واختلاف طرقها تدل على أن وجوب الحج على الفور ، وتعتضد بالآيات القرآنية التي قدمناها .

ولقد فلسف هذه المسألة جماعة من الأصوليين قالوا : ان الشرع واللغة والعقل كلها تدل على اقتضاء الأمر الفوري .

أما الشرع . . فقد قدموا الآيات القرآنية الدالة على المبادرة الفورية لامتثال أوامر الله ، كالآيات السابقة.

وأما اللغة . . فان أهل اللسان العربي متفقون على أن السيد لو قال لعبده : «اسقني ماء» فلم يفعل فأدبه ، فليس للعبد أن يقول له : صيغة «افعل» في قولك «اسقني ماء» تدل على التراخي ، وكنت سأمتثل بعد زمن متراخ عن الأمر ، بل يقولون : ان الصيغة ألزمتك فوراً ، ولكنك عصيت أمر سيدك بالتواني والتراخي .

وأما العقل . . فاننا لو قلنا : ان وجوب الحج على التراخي فلا يخلو من أحد أمرين :

أما أن يكون ذلك التراخي له غاية معينة ينتهي عندها . واما . . لا . والقسم الأول ممنوع ، لأن الحج لم يعين له زمن يتحتم فيه دون غيره من الأزمنة ، بل العمر كله تستوي أجزاؤه بالنسبة اليه ، ان قلنا أنه ليس على الفور . والحاصل : أنه ليس لأحد تعيين غاية له لم يعينها الشرع . وحتى يتسم موضوعنا بسمة التكامل . . نطرح الآن سؤالا ونجيب عليه باختصار .

أي أنواع الحج أفضل ؟ أن يحرم المرء مفرداً الحج ، أم يحرم متمتعاً بالعمرة الى الحج . . أم يحرم قارناً بين الحج والعمرة ؟

لقد وقع خلاف كبير بين أهل الفقه حول هذا الموضوع . .

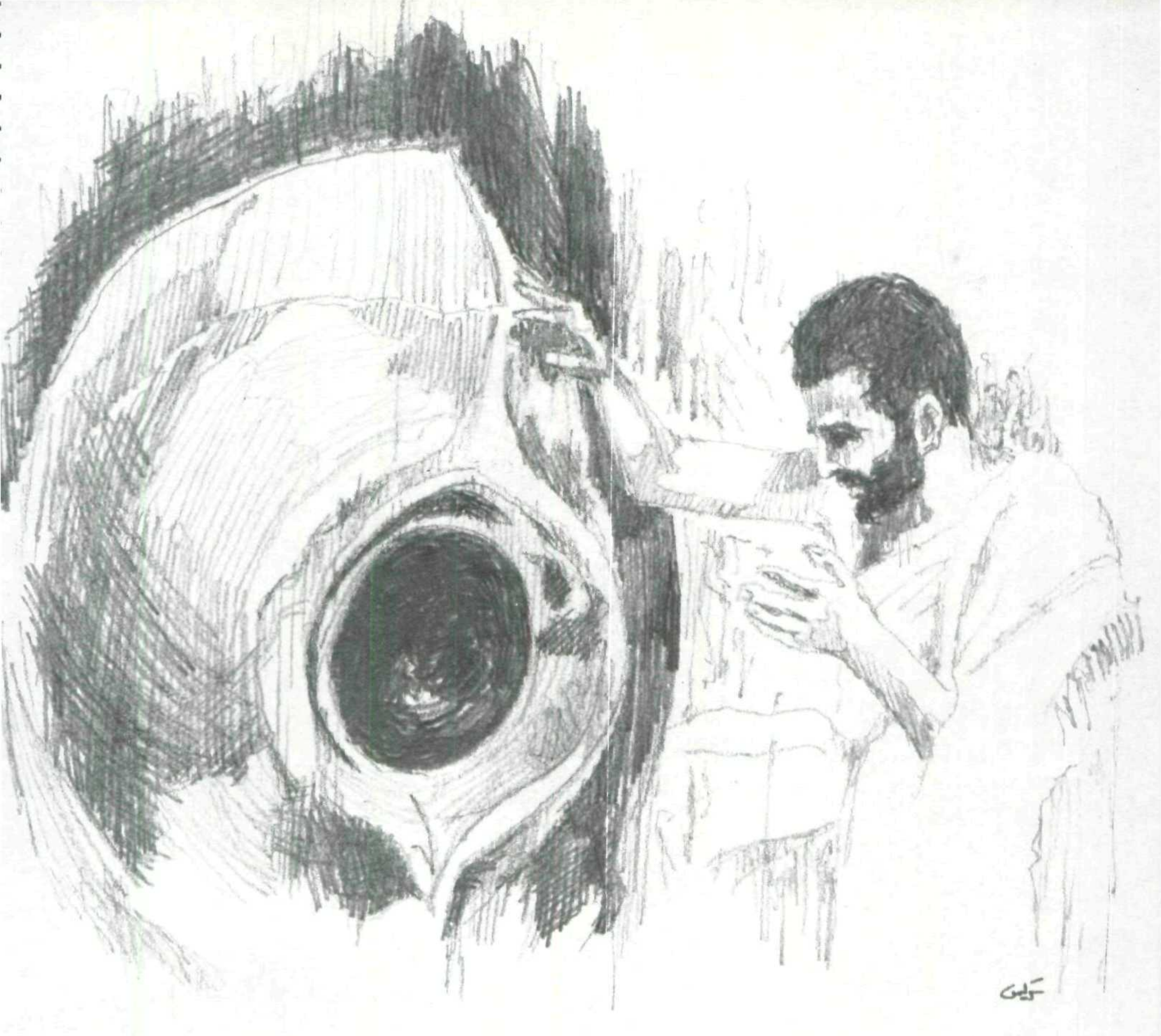
قال مالك وأصحابه ، والشافعي وأصحابه : ان الافراد أفضل من التمتع والقران . قال النووي — في شرح المهذب — «وبه قال عمر بن الخطاب ، وعثمان ، وعلي ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وجابر ، وعائشة ومالك والأوزاعي وداود» .

واحتج مالك وأصحابه بأحاديث صحيحة جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بأنه أفرد في حجة الوداع . منها ما روي عن عائشة ، قالت : «خرجنا مع رسول الله «ص» عام حجة الوداع ، فمنا من أهلّ بعمرة ، ومنّا من أهلّ بحجة وعمرة ، ومنا من أهلّ بالحج ، وأهلّ رسول الله بالحج»(٢٩) .

وهذا الحديث صريح في أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أهلّ بالحج ، ولا يحتمل لفظ عائشة ، رضي الله عنها غير افراد الحج ، لأنها ذكرت معه التمتع والقران ، وأن بعض الناس تمتع ، وبعضهم قرن ، وأن رسول الله «ص» أهلّ بالحج ، فهو الحج المفرد ولا يحتمل غيره .

وفي رواية أخرى عنها ، في الصحيح ، قالت : «خرجنا مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ولا نرى الا الحج» . وفي رواية «ولا نذكر الا الحج». وفي رواية : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد الحج» . وأمر ثان احتج به مالك وأصحابه . . وهو اجماع أهل العلم على أن الفرد اذا لم يفعل شيئاً من محظورات الاحرام ، ولم يخل بشيء من النسك أنه لا دمّ عليه وانتفاء الدم عنه مع لزومه في التمتع والقران ، يدل على أنه أفضل منهما ، لأن الكامل بنفسه الذي لا يحتاج الى الجبر بالدم أفضل من المحتاج الى الجبر بالدم . وأمر ثالث ذكره البيهقي في السنن الكبرى ، باسناد ، عن سعيد ابن المسيب ، أن رجلا من أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أتى عمر بن الخطاب فشهد عنده ، أنه سمع رسول الله «ص» في مرضه الذي قبض فيه ينهي عن العمرة قبل الحج . وأمر رابع ، ذكره النووي في شرح المهذب على أفضلية الافراد بالحج ، أنه هو الذي كان الخلفاء الراشدون يفعلونه بعده ، وهم أفضل الناس وأتقاهم وأشدهم اتباعاً

(٢٧) رواه أبو داود وابن ماجة
(٢٨) ذكره ابن حجر في التلخيص وذكره ابن الجوزي
(٢٩) هذا لفظ البخاري ومسلم



لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقد حج أبو بكر ، رضي الله عنه بالناس مفرداً ، وحج عمر بن الخطاب عشر سنين بالناس مفرداً ، وحج عثمان بهم مدة خلافته مفرداً ، فمدة هؤلاء الخلفاء الراشدين الثلاثة حول أربع وعشرين سنة ، وهم يحجون بالناس مفردين ، ولو لم يكن الافراد أفضل من غيره لما واظبوا عليه هذه المدة الطويلة .

وقال أبو حنيفة والثوري وابن راهويه وأصحابهم : ان القران هو أفضل أنواع النسك .

واحتجوا بأحاديث كثيرة ، تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قارناً ، بين العمرة والحج ، في حجته الوحيـــدة . منها ما أخرجه الشيخان في صحيحهما عن ابن عمر قال : «تمتع رسول الله «ص» في حجة الوداع بالعمرة الى الحج ، وأهدى ، فساق معه الهدي من ذي الحليفة ، وبدأ رسول الله «ص» فأهلّ بالعمرة ثم أهلّ بالحج» الحديث . ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر «أنه قرن الحج الى العمرة ، وطاف لهما طوافاً واحداً ثم قال : هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقال الامام أحمد وأصحابه : ان التمتع أفضل . وساقوا حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، واستندوا اليه ، وقالوا : لو لم يكن التمتع هو أفضل الأنساك لما أمر به أصحابه ، ولما تأسف على أنه لم يفعله حين قال : «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة» الحديث .

ويطول بنا الحديث لو تركنا لأنفسنا العنان . . بيد أن القول الفصل في هذا الأمر —فيما أرى— ما قاله الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، رحمة الله عليه ، قال : «فاعلم . . أنهم ادعوا الجمـــع بين الأحاديث الصحيحة المصرحة بأنه

صلى الله عليه وسلم كان قارناً ، والأحاديث المصرحة بأنه «ص» كان متمتعاً ، وكلها ثابتة في الصحيحين وغيرهما في حجة الوداع ، مع الأحاديث المصرحة بأنه كان مفرداً التي هي معتمدهم في تفضيل الافراد بأنه صلى الله عليه وسلم أحرم أولا «مفرداً» ثم بعد ذلك أدخل العمرة على الحج فصار «قارناً» . فأحاديث الافراد يراد بها عندهم أنه هو الذي أحرم به أول احرامه ، وأحاديث القران عندهم حق ، الا أنه عندهم أدخل العمرة على الحج فصار قارناً ، وصيرورته قارناً في آخر الأمر هي معنى أحاديث القران ، فلا منافاة . أما الأحاديث الدالة على أنه كان متمتعاً ، فلا اشكال فيها ، لأن السلف يطلقون اسم التمتع على القران من حيث أن فيه عمرة في أشهر الحج مع الحج ، وكذلك أمره لأصحابه بالتمتع وتمنيه له ، وتأسفه على فواته بسبب سوق الهدي في قوله «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي وجعلتها عمرة» كفعله له . . وبهذا تتفق الأحاديث ويكون التمتع المذكور بفسخ الحج في العمرة لبيان الجواز ، وهو بهذا الاعتبار أفضل من غيره ، فلا ينافي أن الافراد أفضل منه بالنظر الى ذاته ، كما سار عليه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، وهذا هو الذي لاحظه الخلفاء الراشدون ، فواظبوا على الافراد نحو أربع وعشرين سنة ، كلهم يأخذ بسنة الخليفة الذي قبله في ذلك .

قال : والأظهر عندي في هذه المسألة هو ما اختاره العلامة ابن تيمية رحمه الله في منسكه وهو افراد الحج بسفر ينشأ له مستقلا ، وانشاء سفر آخر مستقل للعمرة(٣٠) .

«.. واعلم أن من أراد الحج له أن يحرم مفرداً للحج ، وله أن يحرم متمتعاً بالعمرة الى الحج ، وله أن يحرم قارناً بين الحج والعمرة ، وانما الخلاف بين العلماء فيما هو الأفضل من الثلاثة المذكورة . والدليل على التخيير بين الثلاثة ما روي عن عائشة : «خرجنا مع رسول الله «ص» عام حجة الوداع فمنا من أهلّ بعمرة ، ومنا من أهلّ بحجة وعمرة ، ومنا من أهلّ بالحج» الحديث .

وهذا نص صريح متفق عليه في جواز الثلاثة المذكورة . قال ابن قدامة في المغني : «وأجمع أهل العلم على جواز الاحرام بأي الانساك الثلاثة شاء» .

بَقِيَ أن نتحدث عن مجموعة من الأمور شرعها الفقهاء لمن أراد أن يحج أو يعتمر . . قالوا : من أراد الحج فليبادر ، وليجتهد في الخروج من المظالم بردّها لأربابها ، كما ورد عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه ، أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، ان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»(٣١) . وفي حديث آخر : قال رسول الله «ص» : «ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم»(٣٢) .

وليجتهد من أراد الحج في رد العوادي ، وأداء الديون التي للناس ، والتي لله كالزكاة والكفارة ، ويستحل من لا يستطيع الخروج من عهدته .

وليبادر بالتوبة من جميع الذنوب . . قال الحق سبحانه : **«يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً»** . وقال عز شأنه : **«وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون»** .

وليحرص كل الحرص على الانفاق نفقة طيبة من حلال ، لما ورد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله «ص» : «ان الله طيب لا يقبل الا طيباً» ، وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المسلمين فقال : «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم» ثم قال صلى الله عليه وسلم : «الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر يمد يديه الى السماء يارب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنّى يستجاب لذلك» .

وليجتهد في رفيق صالح يكون عوناً له على نصبه «تعبه» وأداء نسكه ، يهديه اذا ضل ، ويذكره اذا نسى ، وان تيسر أن يكون الرفيق عالماً فليستمسك بنصحه ، لعل الله أن يجعله سبباً لرشده .

ويجب عليه أن يقصد بحجته أو عمرته وجه الله والدار الآخرة ، والتقرب الى الله بما يرضيه من الأقوال والأفعال في تلك المواضع الشريفة . وعن أنس ابن مالك — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : «يأتي على الناس زمان يحج أغنياء أمّتي نزهة ، وأوساطهم للتجارة ، وفقراؤهم للرياء والسمعة وفقراؤهم للمسألة(٣٣) .

وليحذر أن يقصد بعمله الدنيا وحطامها ، أو الرياء والسمعة أو المفاخرة بذلك ، فان ذلك من أقبح المقاصد وسبب لحبوط العمل وعدم قبوله .

وَيَنبَغِي أن يتعلم ما يشرع له في حجته ، ليكون من حجه على بصيره ، ويصلي ركعتين بمنزله قبل خروجه ويقول بعدهما : «اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل والمال والولد» . فاذا ركب دابته أو سيارته أو طيارته أو سفينته ، استحب له أن يسمّ بالله سبحانه ، ويحمده ثم يكبر ثلاثاً ، ويقول : «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وانا الى ربنا لمنقلبون » اللهم اني أسألك في سفري هذا البرّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا ، وأطو عنا بعده ، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم اني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب في المال والأهل» لصحة ذلك الدعاء عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وليكثر في سفره من الذكر والاستغفار ، والدعاء الى الله ، والتضرع اليه ، وتلاوة القرآن وتدبر معانيه. وليحافظ على الصلاة في الجماعة . وليحفظ لسانه من القيل والقال ، والكذب والغيبة ، والخوض فيما لا يعنيه ، والافراط في المزاح . . واذا نزل منزلا فليقل ما قاله النبي «ص» : «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» لما روي عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — «من نزل منزلا ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»(٣٤) ●

د. أحمد جمال العمري — المدينة المنورة

(٣٠) أضواء البيان ١٧١/٢
(٣١) رواه البخاري
(٣٢) متفق عليه
(٣٣) أخرجه أبو الفرج في مثير الغرام مسنداً
(٣٤) رواه مسلم

إبلا

مدينة الصخور البيضاء

من الاكتشافات الأثرية المثيرة التي تمت في الآونة الأخيرة في الجزء الشمالي من سوريا، اكتشاف حضارة عريقة تتمثل في "أبلا" الواقعة إلى الجنوب من مدينة حلب. لقد عكفت البعثة الأثرية الإيطالية على الحفريات الأثرية في "تل مرديخ" مدة أربعة عشر عاماً حتى تكللت جهودها في عام ١٩٧٥م باكتشاف أثري مهم كان له دوي عميق في الأوساط الاركيولوجية في العالم لما أضافه إلى تاريخ المنطقة من معلومات قيمة وحقائق جديدة لم تكن معروفة من قبل.



١٩





٢

١ – تماثيل عثر عليها في «ابلا» يعتقد علماء الآثار أنها قد تمثل بعض الوجهاء وهم يتصافحون اثر عقد معاهدة فيما بينهم ، لاحظ أنهم يرتدون تنانير قصيرة ذات ثنيات طويلة شأن الأسكتلنديين في هذه الأيام .

٢ – أحد الألواح المكتوبة بالحروف الأسفينية في «ابلا» لم تترجم بعد .

ما يثير الدهشة بالنسبة لألواح «ابلا» ، في ضوء النظريات السابقة المتعلقة بالتاريخ القديم ، ان تلك الألواح قد كتبت بلغة سامية شمالية غربية ، أغلب الظن أنها قريبة من اللغة الفنيقية ، بيد أنها أقدم بكثير من اللغات السامية القديمة المعروفة ، وتعود تلك النصوص الى عام ٢٤٠٠ ق . م. ومما لا شك فيه أن عملية نسخ وترجمة ونشر هذه النصوص تستغرق بطبيعة الحال سنوات عديدة وحتى يتم ذلك ، ستتكشف حقائق تاريخية على جانب كبير من الأهمية . أما ما يستحق الذكر في الوقت الحاضر ، هو أن للتاريخ القديم لشعوب الشرق الأوسط الناطقة باللغات السامية يتطلب بعد هذا الاكتشاف المثير تقييماً متأنياً جديداً . فمملكة «ابلا» بلا شك ، ستضيف معلومات جديدة عن تاريخ الشرق الأدنى القديم ، كما أنها ستعمل على احداث تغيير جوهري في بعض الأفكار التي رسخت في الأذهان عن تاريخ هذه المنطقة .

لقد كان الدافع الأساسي لعمل البعثة الايطالية في تل مرديخ هو رغبة علماء الآثار في القاء بعض الضوء على التاريخ المجهول نسبياً للمنطقة الشمالية من سوريا . وباكتشاف الألواح المكتوبة بالحروف الاسفينية في لغة لم يسبق للعلماء والمؤرخين الوقوف عليها ، أكد قيام دولة تدعى «ابلا» . وقد شجع هذه البعثة الأثرية على المضي بالتنقيب والاعتقاد بأن هناك شيئاً هاماً مخبوءاً تحت صخور تل مرديخ ، هو كثرة المزق الفخارية في جنبات التل ، أضف الى ذلك مساحته التي تبلغ نحو ١٤٠ فداناً ، وقطره البالغ ٣٥٧٥ قدماً . وقد تركزت جهود البعثة منذ مطلع عام ١٩٦٤م وحتى عام ١٩٧٣ على دراسة الحقبة المتأخرة من تاريخ مدينة «ابلا» الممتدة من ٢٠٠٠ الى ١٦٠٠ ق.م.، وهي الفترة المعاصرة للأسرة العمورية ، وعصر حمورابي ملك بابل ، وهي الفترة التي تعتبر من جهة نظر كثير من المؤرخين وعلماء الآثار من أزهى فترات التاريخ القديم والحضارات القديمة . ومنذ عام ١٩٧٣ حتى الآن فقد أنصب عمل البعثة على الحقبة التاريخية الأولى ، وهي الحقبة التي عاشتها المدينة في الألف الثالث قبل الميلاد ، والممتدة ما بين ٢٤٠٠ و ٢٢٥٠ ق . م. ومن الملاحظ من سير الحفريات في الموقع أن طوبوغرافية مدينة «ابلا» واضحة لا وعورة فيها ، ويحيط بالمدينة تحصينات وأسوار منيعة ، تمتد داخلها مدينة واسعة على مستوى منخفض ، وفي وسطها تقوم قلعة صغيرة ترتفع حولها المباني العامة والمباني الادارية والقصور الملكية ، وللمدينة أربع بوابات ضخمة كل منها في ركن من أركان السور .

لقد كان الاعتقاد السائد بين علماء البعثة أن «ابلا» قد تكون في الجزء الجنوبي من تركيا أو في أي مكان آخر في سوريا الشمالية ، بيد أن اكتشاف التمثال المنقوش عليه باللغة الأكادية ، أثبت بما لا يقبل الشك أن هذه هي «ابلا» التي ورد اسمها في النقوش التي وجدت في بلاد ما بين النهرين . وهذا النقش الذي زين به التمثال هو عبارة عن اهداء من «أبيت لم» ابن ملك ابلا . وتذكر النقوش التي وجدت في بلاد ما بين النهرين أن ملكين قاما باخضاع «ابلا» حوالي عام ٢٣٠٠ أو ٢٢٥٠ ق . م . ثم جاء ما يعزز الاعتقاد بأن تل مرديخ يضم «ابلا» حينما اكتشف القصر الملكي وغرفة الأرشيف المكدسة فيها الألواح المنقوشة ، والتي تعتبر الوثائق المعتمدة التي تشير الى أن «ابلا» ليست فقط مدينة مهمة ، بل هي حضارة عظيمة قائمة بذاتها . وقد وجدت هذه الألواح موضوعة على رفوف خشبية شأن الملفات والوثائق في مكتباتنا في العصر الحاضر . ويعتقد البروفسور «ماثيا» من جامعة روما أن حريقاً هائلا قد دمر مدينة «ابلا» وأغلب الظن أن «نارام سن»

١ – يجري ايداع القطع الأثرية المتصلة بمدينة «ابلا» في المتحف الوطني بحلب ، وهذا أمين المتحف ، أنطوان سليمان ، يعرض أحد الألواح من أرشيف «ابلا» .

٢ – تساعد دمغات الأختام الاسطوانية كهذه على تقدير تاريخ الاكتشافات الأثرية وتقرير العلاقات التي كانت قائمة بين الحضارات القديمة .


١



فهرست المجلد السادس والعشرين

١٣٩٨هـ





١ – ناظم جبري أحد العاملين في المتحف الوطني بحلب يعرض حوضاً مزدوجاً للماء منحوتاً في صخر كلسي وجد في أحد المعابد ، أغلب الظن أنه كان يستعمل في الطقوس الدينيـــة .

٢ – العالمة الأثرية «غابريلا ماثيا» عاكفة على تنظيف شظايا الألواح الأسفينية باستعمال أدوات دقيقة للغاية تمهيداً لجمعها ثم ترجمتها فيما بعد .

٣ – الطالبة في قسم الآثار «جانيت شلبي» تقوم برسم القطع الأثرية المستخلصة من حفريات «ابلا» بحجمها الطبيعي .

٤ – تقوم «فرانسيز بينوك» باستخدام منشار المنحنيات لجمع الكسر الفخارية واعادتها الى وضعها السابق .

التصوير : طور ابجلند

ملك أكاد هو الذي أمر باحراق المدينة ، فانهار القصر وغرفة الأرشيف ، وبقي معظم الألواح الطينية في حالة سليمة . وهذه الألواح جاءت بحقائق مذهلة ، منها أن اللغة التي كتبت فيها كانت غير معروفة ، كما أنها غيرت الاعتقاد بأن الكتابة لم تعرف في سوريا حتى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، فالكتابة على هذه الألواح هي كتابة اسفينية كلاسيكية من بلاد ما بين النهرين ، تعود الى مطلع الألف الثالث قبل الميلاد . أما لغة الألواح فهي لغة محلية ، ذات لهجة سامية شمالية غربية ، تمت بصلة الى الكنعانية ، وتختلف عن الأمورية التي كان يعتقد حتى هذا الاكتشاف بأنها أقدم اللغات السامية الغربية .

بَيْدَ أن التشابه واضح بين هذه اللغة وغيرهـــا من اللغات السامية المعروفة كالفنيقية ، والأكادية التي تعتبر اللغة التي كانت سائدة في بلاد ما بين النهرين . ومع ذلك التشابه فانها تقوم كلغة سامية مستقلة تعرف باللغة «الأبلاوية» التي ثبت أنها أقدم من الفنيقية بنحو ألف سنة ، مما يجعلها معاصرة للغة الأكادية القديمة في عهد الملك «سرجون» . ومن بين المعلومات المستقاة من هذه الوثائق أن المنسوجات كانت صناعة تشرف على تصديرها الدولة . وهناك ألواح مسجل عليها الضرائب والاتاوات التي كانت تفرضها مدينة «ابلا» ، أما أهم المعاهدات السياسية فهي تلك التي عقدت بين آشور وابلا . ومن بين النصوص التاريخية المهمة

٢

رسالة من أحد قواد جيش ابلا الى ملك ابلا يخبره فيها عن نجاح الحملة العسكرية الموجهة الى مدينة «ماري» القوية في الألف الثالث قبل الميلاد . وماري كانت دولة مستقلة تقع بين سوريا والجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين ، وتعرضت للفتح مرتين من «ابلا» ، الأولى حوالي ٢٥٠٠ ق . م . ، والثانية حوالي ٢٢٥٠ ق . م . وهناك ألواح أشبه بالقواميس في لغة العصر ، سجلت عليها قوائم بكلمات سومرية وما يقابلها باللغة الابلاويـة ، وهذا أمر بالغ الأهمية ، إذ يدل على أن الابلاويين قد سبقوا غيرهم في تأليف القواميس ، كما يشير الى مدى اهتمامهم باللغات في عصرهم . أما الانتصارات المسجلة على الألواح فتدل على أن ابلا كانت دولة قوية في تلك الحقبة من التاريخ ، وأنها سيطرت على شمال سوريا وأجزاء من بلاد ما بين النهرين والجزء الأسفل من الأناضول . كما أنها كانت خصماً لدوداً لدولة أكاد ، الأمر الذي جعل الملك «نارام سن» الأكادي يهاجم «ابلا» ويخضعها ثم يدمرها حوالي عام ٢٢٥٠ ق . م . كما ورد في بعض النقوش الأكادية ، التي تذكر أن هذا الملك قد دمر «ابلا» و «ارمان» ، المدينتين اللتين لم يسبق لأحد قبله التغلب عليهما . ومع ما في هذا القول من مبالغة ، فانه يدل على القوة التي كانت تتمتع بها «ابلا» . أما «ارمان» التي وردت في النقش الأكادي فيعتقد البروفسور «ماثيا» بأنه الاسم القديم لمدينة حلب . أما التماثيل والرسوم النافرة المتنوعة التي عثرت عليها البعثة ، فانها تعكس جانباً مهماً من الحياة الاجتماعية في «ابلا» ، فالمرأة الابلاوية ، على حد قول البروفسور ماثيا ، حظيت بمركز اجتماعي أرفع مما حظيت به المرأة في بلاد ما بين النهرين وقد اتسمت الحياة الاجتماعية في «ابلا» بالانفتاح ، على عكس الحياة الاجتماعية المغلقة في بلاد ما بين النهرين ، دليل ذلك الطراز المعماري للمنازل والقصور في «ابلا» ، فهي مفتوحة على خلاف القلاع في بلاد ما بين النهرين ، أضف الى ذلك أن أسماء نساء الأسرة الملكية قد ذكرت في الألواح .

إنَّ اكتشاف «ابلا» في الجزء الشمالي من سوريا ليلقي أضواء جديدة على هـذه المنطقة التي احتضنت احدى الحضارات الرفيعـة في الألف الثالث قبل الميلاد ، والتي ستساهم تلك الألواح بعد ترجمتها في توسيع معرفتنا بتاريخ الشرق الأدنى القديم ●

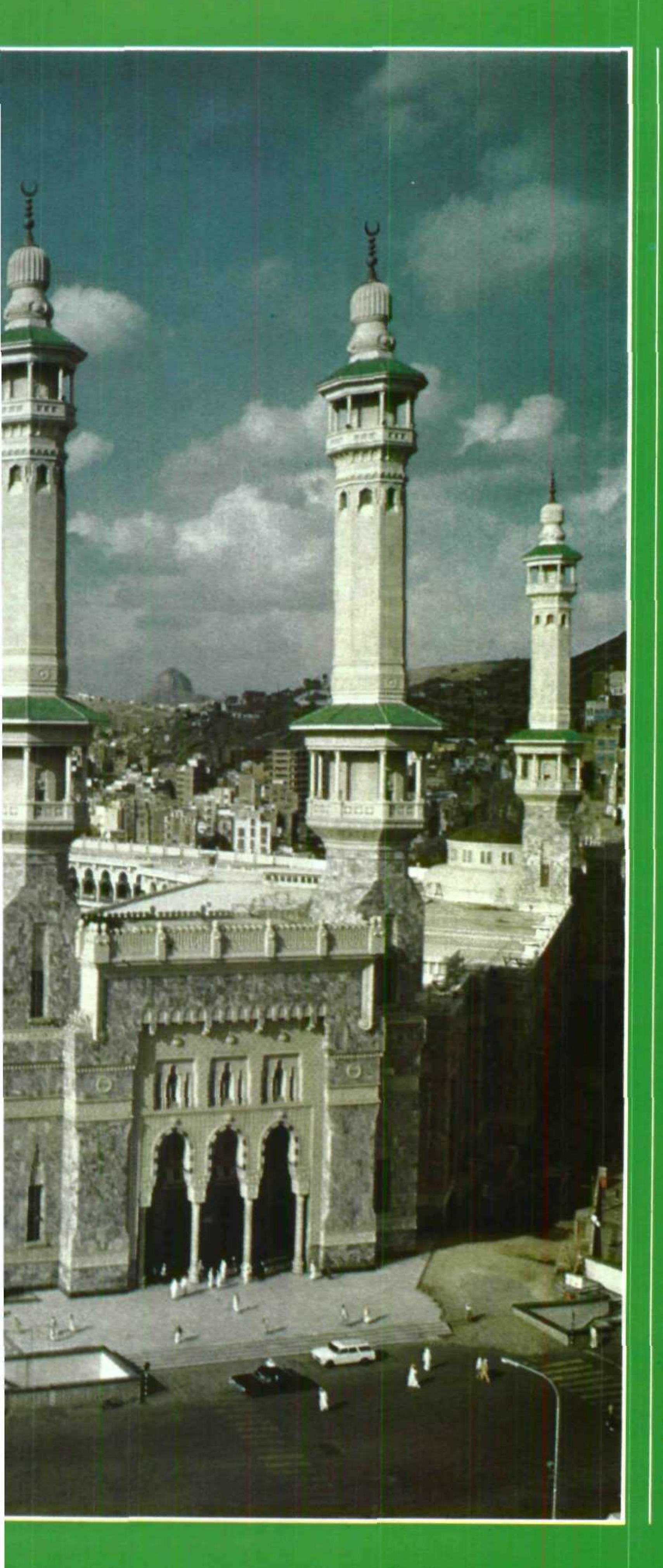
سليمان نصر الله – هيئة التحرير
عن مجلة «أرامكو وورلد»

٣





٤

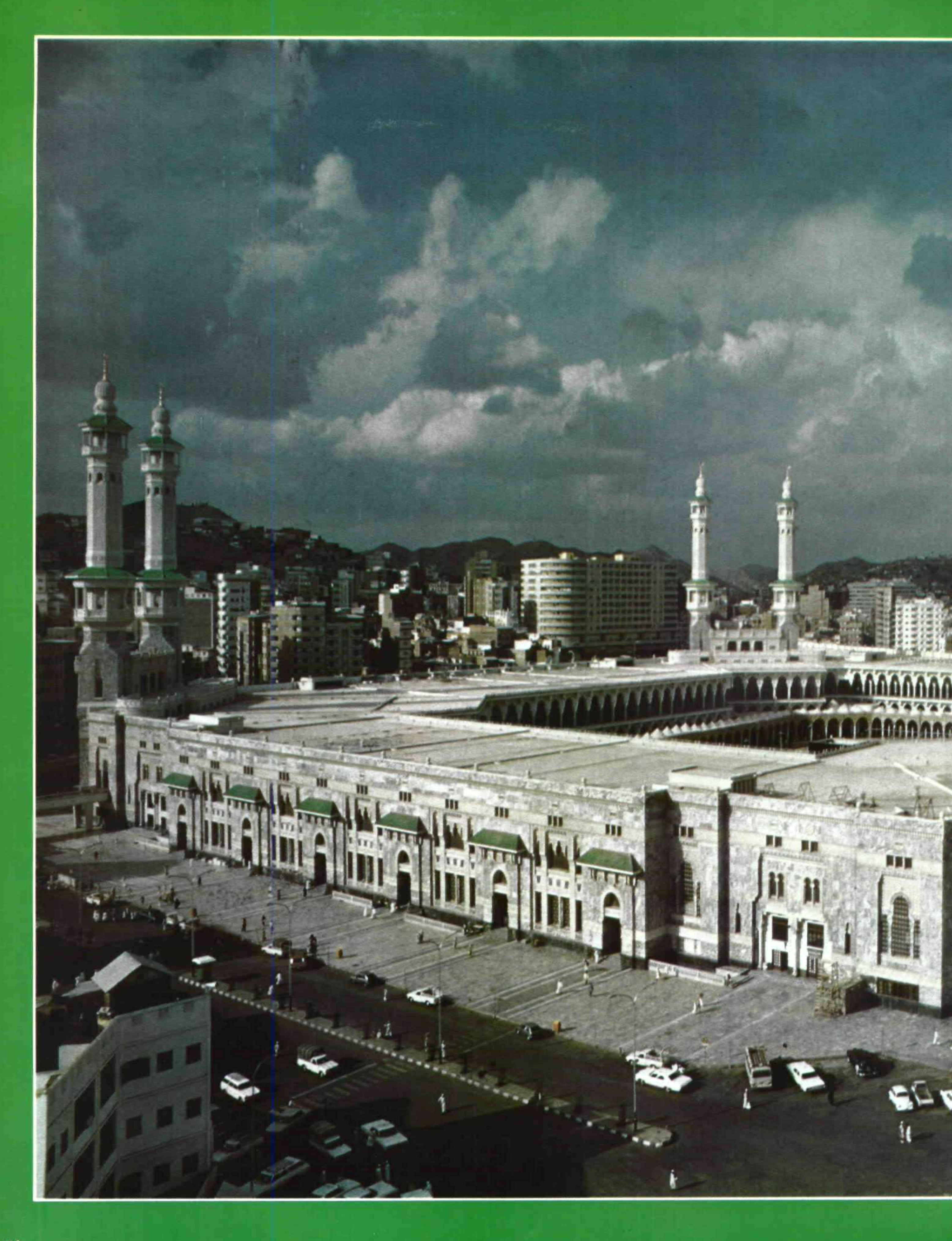


الملامح الجغرافيّة لطريق الحجّ

بين الكوفة - مكة المكرمة

بقلم: الأستاذ سيّد عبدالحميد بكر

يرجع البعد التاريخي لهذا العمل الجليل إلى النصف الأول من القرن الثاني الهجري وبالتحديد سنة ١٣٤ هـ. عندما أمر أبو العبّاس السفاح بوضع ملامح على امتداد طريق الحج. فسُجّلت على الدرب علامات الأميال، وارتفعت المنارات وأوقدت النار عليها ليلاً لهداية الحجيج في المسيرة عبره بين الكوفة ومكة المكرّمة. وشهد عام ١٦١هـ أعمال العبّاس الجليلة، فأمر بتجديد وتوسعة جميع المباني التي أنشئت من قبل بين محطتي الكوفة وزبالة. ولقد بلغت العناية بالطريق شأناً عظيماً جعلت حركة الانتقال تتم خلاله بسرعة حتى قيل ان الثلج كان يجلب للمهدي من العراق إلى مكة المكرّمة في حجة سنة ١٦٠هـ. وخصّ هارون الرشيد الدرب بالعديد من أعمال الصيانة والإصلاح. وجاوز الأمر الخلفاء إلى زوجاتهم وعامة الناس، فالسيّدة الخيزران، زوج المهدي قدّمت انجازات كثيرة على جادة الحج، فبعد أربعة أميال من محطة زبالة أقيم علم الخيزران وبرزت من كريمات البيت العبّاسي السيدة زبيدة لما قدّمته من جليل الأعمال، فاهتمت بتوفير الماء على طول الدرب ولا غرابة في أن يحمل الدرب إسمها، بل أن التاريخ ليحفظ لنا في سجلاته أسماء وصيفات بلغن في العناية بالسير على منهج الخلفاء منهجاً عجيباً، ومنهن خالصة وصيفة الخيزران التي اليها تنسب أعمال عديدة على جادة الطريق.



وَقد بلغ من اهتمام الدولة العباسية من العناية بطريق الحج حداً ما ، جعلها تعين الولاة للاشراف عليه لتوفير الأمن فظهرت أسماء أنيط بها هـذا ، مثل يقطين ابن موسى وأخيه أبي موسى وجعفر بن سليمان ابن علي ومحمد سليمان . ولكي ندرك أهميـة طريق الحج العراقي في خدمة الحجيج طيلة ما يزيد على عشرة قرون ، نسوق ما سجله شاهد عيان رافق موكب الحج العراقي في نهاية القرن السادس الهجري (٥٨٠هـ) بعد مضي أربعة قرون من نشأة الطريق وهو الرحالة ابن جبير فيقول : هـذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد الى مكة المكرمة هي آثار زبيدة. ويقول في موضع آخر : وبهذه المحلة العراقية بين ما انضم اليها من الخراسانية والمواصلة ، وسائر الآفاق من الواصلين صحبة أمير الحج العراقي جمع لا يحصى عدده إلا الله تعالى . وتبرز من أقواله عدة أمور منها ضخامة العمل المقـام على الطريق في مراحله المختلفة ، وكثرة عدد الحجاج المستخدمين لـه ، وعالمية الموكب ، وبعملية حسابية بسيطة نفترض فيها أدنى تقدير للموكب الذي كان يسلك الطريق كل عام . وعبر ما يزيد على عشرة قرون ، يخرج الناتج بالملايين من الحجاج ، لقد كان هـذا هو البعد الزمني للطريق ، أما البعد الأرضي ، فمن الكوفة الى مكة المكرمة مسافة تقترب من ١٢٠٠ كيلومتر يسير الطريق خلالها عبر أرض شاسعة تتميز بالعديد من الملامح منها :

٭ ان الطريق من الكوفة الى مكة المكرمة يعبر أرضاً تشغل ما يزيـد على احدى عشر درجة عرضية ، تتغير خلالها الأحوال المناخية والبيئيـة ، ويمر خلال نطاق يغطي حوالي أربعاً من خطوط الطول مما يجعل مساره منحصراً بين الشمال الشرقي والجنوب الغربي .

٭ يسير الطريق خلال أرض تختلف بها مظاهر السطح فقـد يسير عبر العروق الرملية أو خلال أرض الحماد والرق ، ويعتلي أرض الحرار ، وقد يصعد الجبال أو يهبط الى القيعان .

٭ طول مسافة الطريق كما سبق ذكرها وقد يبدو هذا الأمر ضئيلا في عرف وسائل السفر الحيالة ، ويستغرق تقديراً زمنياً لا يتجاوز من وجهة نظر المسافر بالسيارة ، أو ساعة وبضع دقائق لدى المسافر بالطائرة . ولكن الأمر يختلف من وجهة نظر المسافر في القافلة ، فقد يستغرق شهراً أو يزيد . ولهذا السبب قامت المحطات بمواضعها التجارية . وكان الطريق مصدراً لانتعاشها ، لذا لم تسلم محطاته من هجمات قطاع الطرق والغوغاء .

٭ تغير مسار الطريق بين المحطات ، اختصاراً للمسافة أو تلافياً للعقبات المعترضة وقد حدث هذا أكثر من مرة مما أدى الى ظهور فوارق في تقدير المسافات بين المحطات لدى كثير ممن كتبوا عن الطريق .

٭ لقد صحب موكب الحج العراقي العديد من الرحالة ، فشجعهم سلوك الطريق على تدوين انطباعاتهم وتركوا لنا تراثاً يصف قطاعاً أو آخر من من شبه الجزيرة العربية في المواضع التي مروا بها ، أرضاً وسكاناً . ومن المعتاد أن تبدأ مسيرة قوافل الحجيج في اليوم الرابع من ذى القعدة لتصل مكة المكرمة في اليوم الخامس من ذى الحجة .

مراحل الطريق

لقد كانت بدايته من الكوفة حيث يتجه الطريق الى جنوب غرب الكوفة ويلتقي بعدة طرق تصل بين العراق والمملكة العربية السعودية ، منها درب السيد ، ودرب الغزال .

وَقد ذكر ابن جبير أن الطريق يصل القادسية بعد الكوفة والنجف ، والمسافة بينهما كما قدرها ابن خرداذبة في «المسالك» بـ ١٥ ميلا وذكر «موزل» انها ٢٧ كيلومتراً . ويرجح التقدير الأخير . وبعد القادسية يصل الطريق الى العذيب . ويسير الطريق في هذه المرحلة في أرض منبسطة خالية من المرتفعات غير أن العديد من الوديان تخدد أرضها ، وتصل الطريق بعدها بركة أم قرون ، وأطلق عليها ابن جبير «منارة القرون» وبقربها «خزان للماء» . وتنسب المنارة الى ملك شاه عندما أقامها في طريق الحج سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥) ، وقد يكون هذا سبب عدم الاشارة اليها فيما كتب عن الطريق قبل هذه الفترة . ثم يمر الطريق ببئر النصف ثم بركة مغيثة. والمسافة من العذيب الى مغيثة ، كما ذكرها ابن خرداذبة ، ٢٤ ميلا . وبين العذيب وبركة مغيثة ، أرض منبسطة بهـا العديد من الوديان ، ولا تعترض الطريق عقبات تذكر . وبعد مغيثة يستمر الطريق متجهاً نحو الجنوب الغربي حتى يصل الى واقصة . وعلى مسافة قليلة من شمال واقصة حيث عسكر بها قائد الجيش الاسلامي سعد بن أبي وقاص في غزو القادسية سنة ١٤هـ . وقبلها بمسافة قليلة كانت توجد القرعاء .

وَذكرها كل من اليعقوبي في كتابه «البلدان» وابن رستة في كتابه «الأعلاق النفسية» وأبو الفرج قدامة في كتابه «الخراج» . وبعدها يلتقي الطريق بالحدود بين العراق والمملكة العربية السعودية عند عثامين ، حيث توجد بعض التلال يسير بعدها داخل الأراضي السعودية الى قبر بندر ثم الى بركة العقبة التي أطلق عليها ابن جبير «عقبة الشيطان» ويوجد بها العديد من آبار المياه ، وبعدها يسير الطريق فوق سهل صخر به كثير من الحصى حتى جال البطن ثم ينحدر بشدة الى منطقة منخفضة وتقدر المسافة بين واقصة وبركة العقبة بمسيرة تسع ساعات .

وبَعد بركة العقبة يكاد يسير الطريق بجوار خط الحدود السعودية العراقية ، ولكنه أحياناً يخرج الى الأراضي العراقية كما حدث عند بركة «القاع» في شمال شرق جبل رفحا وتتجنب في هذه المسيرة منطقة مضرسة ، تكثر بها الخبرات ، ولا تزال بركة القاع معروفة .

ولقد وصف الحربي القاع فقال : بها قلعة ومسجدان وقصر وهو أحصن منازل الطريق بناءاً وبه ثلاث برك وعلى مسافة قليلة الى الشمال الشرقي من القاع توجد بركة زبيدة «الهيثم» ، وتنسب للسيدة زبيدة ، وتبعد عن القاع مسافة قليلة والطريق بين واقصة والقاع يمر بمنطقتي ظهرة البطن والزفيري . ثم يصل الطريق بعد ذلك الى الجميمة .

وعلى مسافة قليلة من خط «التابلاين» ، يلتقي الطريق تماماً مع خط الحدود العراقية السعودية ، يسير بعد هذا داخل الأراضي السعودية الى بركة زبالة وقد وصفها ابن جبير بقرية معمورة بها قصر مشيد من قصور الاعراب ، كما أنها من المناهل الشهيرة بطريق الحج وبها سوق عظيمة من أسواق الطريق . وساق الحربي عدة تعليلات لاسم زبالة ، غير أنه ذكر أن بزبالة على أيامه عدة برك وآبار للماء العذب .

وَيسير الطريق بعد زبالة مع وادي زبالة حتى بركة أم العصافير وكانت المتعشى . ويأتي الطريق اليها مباشرة من الشمال الى الجنوب ، وبعدها يسير الطريق بين مجموعة من التلال حتى يصل بركة الشيحيات . وذكر «موزل» أن الشيحيات هي الشقوق قديماً وبعدها يسير الطريق في منطقة تملأها العقبات ثم الرمال حتى بركة العشار «البطان» ولقد ذكر في دليل الخليج أن الطريق من شمال واقصة الى ما بعد الشيحيات وحتى بركة حمد يسير في منطقة هضبة الحجرة ، وهي منطقة صخرية صلبة أو صحراء جيرية ، ذات امتداد واسع تقع في الشمال الشرقي من النفوذ . والجزء الأكبر من الحجرة يتكون من تتابع غير مختلف من الهضاب العريضة التي تشبه الأمواج . وبعد الشيحيات يسير الطريق بانحراف نحو الجنوب الغربي الى خبراء خنيفس في الشرق من جال خنيفس على ارتفاع ٥٦٨ متراً . ويصل بركة حمد ثم يسير من الشمال الى الجنوب حتى بركة

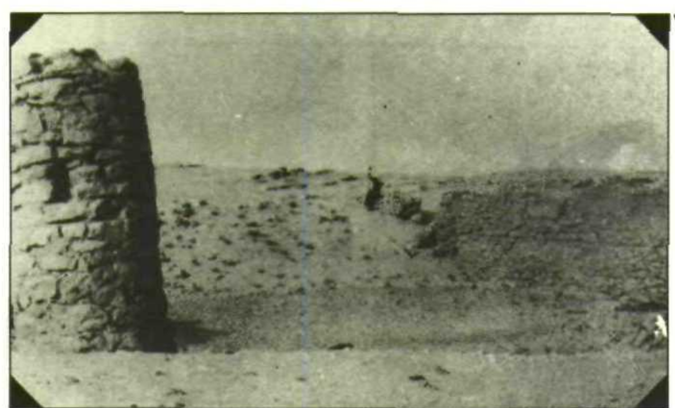
العشار ، وتأتي بركة العشار قرب قبر العبادي ، وبعد الشقوق بـ ٢٢.٥ ميلا . والطريق يسير في منطقة بركة العشار ين الدهناء والنفود لهذا يمر ببعض العروق الرملية ومنها عرق اللبيد شمال بركة العرائش . وبعد عرق اللبيد يمر بأرض من تكوينات الرق يستنتج هذا من وصف الحربي لأرض المنطقة بالخشونة بعد مرور الطريق بالتكوينات الرملية الى أن يصل الثعلبية التي تقارب ثلث مسافة الطريق بين الكوفة ومكة المكرمة . أجمع على ذلك كل من أبي الفرج قدامة وابن رستة واليعقوبي . وبعدها يسير الطريق نحو الجنوب الغربي عبر عرق المظهور في منطقة رملية ويعبر شامة الأكياد على ارتفاع ٧٣٤ متراً ، ثم عرق لزام ثم شامة زرود ثم زرود ، وأطلق عليها ابن رستة (الخزيمية) .

ويقول الحربي في المناسك أن دون الخزيمية بثلاثة أميال رمل يقال له حبلا زرود «والحبل هو المسطح الرملي الذي تملأه الكثبان» ويضيف الحربي : «قبل أن تصل الى الخزيمية بأربعة أميال مفترق الطريق الى المنازل التي تنسب الى زرود ، فمن ذلك الطريق الأيمن الى الهاشمية والمنتصف في الطريق الأوسط «قصر أم جعفر» والطريق الثالثة الى الخزيمية . وفي موضع آخر ذكر أن زرود قبل الخزيمية بميل ونصف. وعلى ستة أميال من الخزيمية بئر الهاشمية . لهذا كان استخدام أم ياقوت اسم زرود للصحراء الرملية التي تقع على طريق الحج فيما بين الثعلبية والخزيمية أدق .

ويسير الطريق الى الجنوب الغربي فيعبر عرق الأبيتر ووادي الخوير ويصل الأجفر ، وهي منطقة تكثر بها الصخور الرسوبية ومنها الطين الأبيض الذي كان يحمل الى بغداد وهذا يعني أن المنطقة تحتوي على مواد صلصالية نتيجة انصراف العديد من الوديان الصغيرة اليها وذكر ابن رستة أن المسافة بين الخزيمية والأجفر ٢٤ ميلا . وقبل أن يصل الطريق الى الأجفر يمر بجال الأجفر وهو على بعد أربعة أميال من الأجفر كما حـــدده الحربي «المناسك» حيث أطلق عليه عقبة الأجفر . ويأتي الحربي في المناسك بتعليل لاسم الأجفر فيقول : «سميت بالأجفر لجفارها ، وسعة قاعها ، وكانت فيها بكل جفرة «أقلبة» (آبار) . وفي تعليق الجاسر على الموضع نفسه ذكر أنه قرية الآن تضم أكثر من ألف نسمة وجنوب الأجفر يصل منسوب الارتفاع ٧٢٧ متراً . ويعتبر الأجفر منهلا مشهوراً من مناهل البادية يصل اليه وادي الساقية ويزداد الارتفاع من الأجفر الى فيد . ففي الأجفر يصل المنسوب الى ٧٢٧ متراً وعندما يقترب من فيد يصل حوالي ٩٠٠ متر . وقبل وصوله الى فيد يمر بوادي «ساح أبو رمث» وشرقه جبل الحويض ٨٠٩ أمتار ولعله «جبل الكثيل» الذي قصده الحربي عن يسار الطريق . ويصل الى فيد . وبهذا يدخل الى منطقة الدرع العربي من الشرق وتتغير طبيعـــة الأرض التي يسير عليهـــا . والطريق من الأجفر الى فيد كما ذكرها الحربي ٢٧ ميلا . وعند فيد يعتلي الطريق هضبة تكسوها بعض الحرار . ومنها حرة الهتيمة وهي الاسم الغالب على مجموعة الحرار في منطقة فيد ومن الجبال بالمنطقة حيان والجدر والصعانين .

ولقد وصفها ابن جبير بحصن كبير مبرّج مشرف على بسيط من الأرض يطيف به سور عتيق البنيان معمور بسكانه من الاعراب ، يتنعشون مع الحجاج في التجارات . وفي فيد يترك الحاج بعض زادهم لحين عودتهم . وتمثل فيد نصف الطريق بين مكة المكرمة والكوفة . ويقضي موكب الحجيج بها يوماً للراحة والمتاجرة وفيها ينزل عامل الطريق ، وكانت مقر والي الطريق في العصر العباسي . ولقد أورد الحربي بعض التعليلات لاسم فيد ، وذكر أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أقطع «لزيد الخير (الخيل) بن مهلهل . فيداً وحماها . وذكر الحربي أن بفيد على أيامه ، قصراً ، وبساتين وحصوناً خرب بعضها ، ومسجد جامع . وذكر الجاسر أن فيد الآن قرية يبلغ عدد سكانها أكثر من ٤٠٠ نسمة عدا القبائل







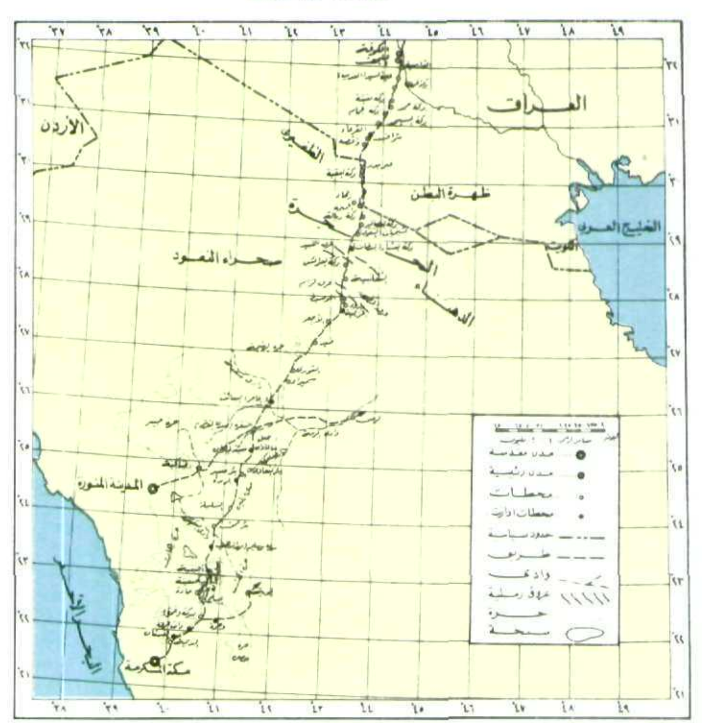


١ – رسم لقافة الحجيج في النصف الأول من القرن الهجري الحالي .
٢ – آثار بركة قديمة في محطة ذبـان طريق الحج العراقي القديم .
٣ – واحة فيد في منتصف طريق الحج العراقي القديم .
٤ – بركة قديمة للمـاء (خزان) . في منطقة العمياء في القسم الشمالي من طريق الحج العراقي (القديم) .

عن بحث للدكتور سعد الراشد

مخطط تقريبي لطريق الحج العراقي

الكوفة - مكة المكرمة



جدول المسافات التقريبية بين محطات الطريق

المحطة	الحربي	ابن خرداذبه	المقدسي	أبو الفرج قدامة	ابن رستة	موزل	المرجع
الكوفة ــ النجف	—	١٥م	—	١٥م	١٥م	٢٧ كم	٢٧ كم
القادسية	—	٦ م	—	٦ م	٦ م	٨ كم	٨ كم
العُذَيْبُ	—	٢٤م	—	٢٤م	٢٤م	٣٤ كم	٣٤ كم
المُغِيثَةُ	—	٣٢م	٢٢م	٣٢م	٣٢م	٤٢ كم	٤٢ كم
القَرْعَاءُ	—	٢٤م	٢٤م	٢٤م	٢٤م	٤٦ كم	٤٦ كم
وَاقِصَةُ	—	٢٩م	٢٩م	٢٩م	٢٩م	٥٠ كم	٥٠ كم
العَقَبَةُ	—	٢٤م	٢٤م	٢٤م	٢٤م	٤٧ كم	٤٧ كم
القَاعُ	١٨م	٢٤م	٢٤م	٢٤م	٢٤م	٤٣ كم	٤٣ كم
زُبَالَةُ	١٧م	٢١م	٢١م	١٨م	٢١م	٣٩ كم	٣٩ كم
الشُقُوقُ (الشيحيات)	٢٢م	٢٩م	٢٩م	٢٩م	٢٩م	٥٠ كم	٥٠ كم
البِطَانُ	٢٢,٥م	٢٩م	٢٩م	٢٩م	٢٩م	٥٠ كم	٥٠ كم
الثَعْلَبِيَةُ	٢٣م	٣٢م	٣٢م	٣٣م	٣١م	٦٠ كم	٦٠ كم
الخُزَيْمِيَةُ (زرود)	٢٠,٥م	٢٤م	٢٤م	٢٤م	٢٤م	٦٠ كم	٤٠.٨ كم
الأجْفَرُ	٢٧م	٣٦م	٣٦م	٣٦م	٣٦م	٧٢ كم	٦١ كم
فَيْدُ	٣١م	٣١م	٣١م	٣٣م	٣١م	٦٤ كم	٦٤ كم
تُوز	١٥م	٢٠م	١٦م	٢٠م	٢٠م	—	أقل من ٢٠ كم
سَميراء	٢٣.٥م	٣٣م	٣٣م	٢٣م	٣٤م	—	٥٦ كم
الحَاجِرُ	٢٧.٥م	٣٤م	٣٤م	٢٧م	٣٤م	—	٤٦ كم
النَقْرَةُ	٢٧م	٣٣م	٢٧م	٣٣م	٣٤م	—	٤٦ كم
مُغِيثَةُ الماوان	٢٠م	٢٤م	٢٤م	٢٤م	٢٤م	—	٤٤ كم
الرَّبَذَةُ	٢٣.٥م	—	—	—	٢٦م	—	٤٥ كم
السَّلِيلَةُ	١٨م	—	—	—	٢١م	—	٣٥ كم
عُمَقُ	٢٢م	—	—	—	١٩م	—	٣٢ كم
معدن بني سُلَيْمٍ	٢٦.٥م	—	—	—	٣٢م	—	٤٤ كم
الأفَيْعِيَةُ	٢٦م	٢٤م	٢٤م	٣٤م	٢٨م	—	٥٨ كم
المَسْلَحُ	١٧م	١٨م	١٨م	١٨م	١٨م	—	٣٠ كم
غَمْرَةُ	٢٠م	٢٦م	—	٢٦م	٢٩م	—	٤٤ كم
ذات عِرْق	٢١م	٢٢م	—	—	٢٢م	—	٣٥ كم
بستان ابن مُعَمَّر	٢٤م	٢٤م	—	—	٢٤م	—	٤٠ كم
مكة المكرمة							

الرحل المحيطة بها ويحيط بها منطقة عرفت بحمى فيد ، وأما اليعقوبي فحدد وظيفتها ، بالمدينة التي ينزلها عمال طريق الكوفة مكة المكرمة .

ولما كانت فيد محطة تجارية رئيسية على الطريق لذا قصدها قطاع الطرق ممن عرقلوا مسيرة ركب الحجيج . ففي سنة ٢٩٤هـ حاصر أفراد من طي قائد الحج بفيد ، طمعاً في الأموال ، وهاجم القرامطة قافلة الحجاج في منطقة الهبيرة قرب فيد ، اثارة للفتن . وفي سنة ٣٧٩هـ هوجم الحجاج بفيد .

وبعد فيد يتجه الطريق الى توز (التوزي الآن) ثم يتجه الطريق ناحية الجنوب الغربي الى أن يصل الى سميراء . والمسافة بين توز «التوزي» وسميراء كما ذكرها ابن خرداذبة تمتد ٢٠ ميلا . ووصفها ابن جبير كموضع معمور في بسيط من الأرض وذكر أن أهلها يتاجرون مع الحجاج . وذكر الحربي في «المناسك» أن في سميراء قصراً ومسجداً على أيامه وبها مجموعة من الآبار . وبعد مسيرة الطريق من سميراء الى الحاجر يمر ببركة الحسنة ، والعباسية ، ثم وادي الثلبوت الذي ينحدر الى وادي الرمة . ويمر الطريق بوادي شعبة أحد روافد وادي الرمة ثم يقطع وادي الرمة الى الشمال من دائرة عرض ٢٦ شمالا . ولقد وصف ابن جبير هذه المنطقة بتوافر الماء العذب فيها كما شاهد بعض الخزانات في منطقة الحاجر . وذكر الحربي العديد من البرك بالحاجر ثم حدد موقع الحاجر فقال : الوادي الذي يسبقها هو بطن رمة ، وذكر أن الماء يمكن الحصول عليه بحفر ذراعين . وقدر المقدسي المسافة من سميراء الى الحاجر بـ ٣٣ ميلا . وبعد الحاجر يسير الطريق الى النقرة .

وبين الحاجر والنقرة توجد محطة القارورة وذكرها الحربي «قروي» على بعد ١٣ ميلا من الحاجر ، وقد وصف ابن جبير طقس المنطقة بالاعتدال . وتوجد النقرة الى الشمال من وادي الجفن . وفي تعليل اسم النقرة ذكر الحربي أنها نقرت في الصفا «الحجر الأبيض» ومنها يخرج طريق الحجاج الى المدينة المنورة ومن النقرة يسير طريق الحج الى مكة المكرمة نحو الجنوب بانحراف قليل نحو الجنوب الغربي . وجدير بالملاحظة أنه يوجد نقرتان وهما منهلان نقرة شمالية وأخرى جنوبية وبينهما مسافة قليلة . وطريق الكوفة مكة يمر قرب الشمالية . وبعد النقرة يعبر جبل سناف الجفن ، ثم الى جبل ماوان وهنا يمر الطريق بمنطقة مغيثة الماوان والاسم يطلق على الجبل ، والموضع معاً . ويقع الجبل الى يسار الطريق ، وأضيفت كلمة مغيثة الى ماوان تمييزاً لها . وقد حدد الحربي المسافة بين النقرة ومغيثة بما يعادل ٤٣ كيلومتراً تقريباً .

وتكتنف الجبال مسيرة الطريق بعد أن يترك مغيثة الماوان ويسير من الشمال الى الجنوب مع جزء من وادي ساحوق ، ويصل الى الربذة . وأورد الحربي عدة تعليلات لاسم الربذة منها : أنه ينسب الى جبل أحمر يقع غربها واسمه ربذة ، ومنها : أن الربذة صوفة من عهن تعلق في أعناق الابل . ولقد عاش بالربذة الصحابي الجليل «أبو ذر الغفاري» في أواخر أيامه ، وسبب اندثار الربذة الحروب التي قامت بينهم وبين أهل ضرية سنة ٣١٩هـ . وبالربذة مجموعة من الآبار منها بئر تعرف بأبي ذر الغفاري نسبة للصحابي الجليل وفي تحديد موضع الربذة يقول الجاسر : الربذة بين دائرتي عرض ٤٥ ــ ٢٤ و ٥٠ ــ ٢٤ شمالا تقريباً وخطي طول ٥٠ ــ ٤٠ و ٤٥ ــ ٤٠ شرقاً ، بين بركة «أبو سليم» وبئر الغفاري . وهذا يعني أنها على مقربة من بئر «أبو مغير» وبين مغيثة الماوان والربذة يسير الطريق من الشمال الى الجنوب الى أبي مغير ويسير الى محطة السليلة في أرض منبسطة ثم يعبر منطقة من الجلاميد ثم سهل صخري وعلى بعد أحد عشر ميلا ، بركة تسمى ضبه والضب واد يسار

الطريق والى جانبها بئر وماء كثير ، وبناء خرب وهو المتعشي والجبل الذي قبالته يقال له «ذات فرقين» . أما الوادي الواقع يسار الطريق فهو وادي روكوة ، ويلتقي بوادي العقيق قرب الموضع المذكور . ولما كانت السليلة تبعد عن هذا المكان ١١ كيلومتراً الى الشمال ، اذا فموقعها قرب جبل فرقين . وقدر الحربي المسافة بين الربذة والسليلة بـ ٢٣٫٥ ميلا ، بينما قدرها ابن رستة بـ ٢٦ ميلا . وقد أخطأ كل من المقدسي وقدامة ، وأيضاً ابن خرداذبة في ترتيب المواضع بعد الربذة من ناحية مكة المكرمة فذكر المقدسي لقد مد بني سليم بعد الربذة ، ثم السليلة وجاء ما أورده ابن خرداذبة مؤيداً لهما . والصواب أن السليلة بعد الربذة . ويحتمل أن يكون موضع السليلة قرب دائرة عرض «١٢ — ٢٤ شمالا وخط طول ١٨ — ٤١ » .

ويتجه الطريق بعد عبوره لوادي العقيق نحو الجنوب بانحراف قليل الى شرقي الجنوب الغربي فيصل الى بئر عمق التي لا تزال معروفة بهـــذا الاسم .

ويسير الطريق بعد بئر عمق نحو الجنوب . وذكر الحربي بالمنطقة العديد من الآبار من أعمال العباسيين أما المسافة بين السليلة وبئر عمق فلقد قدرها الحربي بـ ١٨ ميلا ، وقدرها ابن رستة بـ ٢١ ميلا ، وهذا ما يعادل حوالي ٣٤ كيلومتراً تقريباً . ومعدن بني سليم هو المحطة التالية بعد بئر عمق . ولتحديد موضعه ، نذكر ما جاء في أقوال الحربي : «وقبل المعدن بثلاثة أميال يمنه موضع بستان يعرف ببستان «أم صالح» وكان الطريق عليها محول وعلى ميلين ونصف المنزل الخرب الذي يقال له الريان ، وكان الرشيد ينزله» . ومن هذا الوصف يحتمل أن تكون بئر جريسية موضع بستان «أم صالح» . وهذه البئر في شمال غرب مهد الذهب بمسافة قليلة لا تتجاوز ثلاثة أميال وليس بالمنطقة بئر غيرها . وبعد مهد الذهب يسير الطريق ناحية الجنوب الغربي فيستمر مسافة قصيرة في وادي سيلا ثم يمر قرب جبل الريان . ومن هذا الموضع تتفرع عدة طرق الى مكة المكرمة عن طريق صفينة وحاذة ، وعن طريق الأفيعية . وبعد جبل ريان ، يسلك الطريق الى صفينة سهلا مستوياً أطلق عليه الحربي «السلق» وذكرها ياقوت «السلف» . ثم يمر الطريق قرب جبل الزور وهو جبل مستطيل يسير الطريق في شرقه ، ويوجد الى الشمال من بلدة صفينة . ثم يتجه الطريق بعد صفينة الى حاذة ، ويسير اليها عبر الطرف الشرقي لحرة رهاط ، ويعبر الطرق الجنـــوبي الغربي «لخبرة العرن» قرب جبل الحيض ، ثم يعود فيساير الحرة مرة أخرى حتى يصل منطقة «الاتم» . وقال ابن السكيت الاتم اسم جامع لقريات ثلاث حاذة ، ونفيا ، والقيا وأضيفت اليهم قرية رابعة هي المحدث . وكان الحجاج ينزلون البعث أسفل . وبالمسلح قصر ومسجد وعدة برك . ولا تزال المسلح معروفة والى الشمال منها فاضة المسلح ، ويصب وادي المسلح فيها وتوجد شمال غرب سهل ركبة .

وعودة الى معدن بني سليم حيث كان الطريق منها يسير الى منطقة جبل الريان ومن هذا الموضع يسير الى الأفيعية «غير أفاعية» . وفي تعليل اسم الأفيعية يقول الحربي : «سميت الأفيعية لكثرة حياتها الأفاعي» . وفي تقدير المسافة بين معدن بني سليم والأفيعية ذكر الحربي أنها ٢٦٫٥ ميلا حوالي ٤٨ كيلومتراً . وقدر الحربي المسافة بين الأفيعية والمسلح بـ ٢٦ ميلا وفي هذه المنطقة يسير الطريق بين حرة الكشب في شرقه وحرة رهاط في غربه ويمر شرق خبرة العرن وفاضة المسلح ، وعلى ٨ أميال من غمرة أم خرمان ومنه يعدل أهل البصرة : «وهذا يعني أن أم خرمان ملتقى طريق حجاج البصرة بحجـــاج الكوفة» ، ويقول الحربي : فاذا انحدرت صرت الى تهامة وثم ذات عرق : ولما كانت أم خرمان «أوطاس» على بعد ٨ أميال من غمرة ، اذا تكون ذات عرق على بعد ١٢ ميلا من أوطاس «أم خرمان» . ويذكر ابن رستة أن المسافة بين المسلح وغمر ٢٨ كيلومتراً . وهكذا قدرها ابن خرداذبة وذكر أن المتعشي أوطاس على ٢٠ كيلومتراً ، وفي «بلاد العرب» أوطاس هي أم خرمان ، ويسير الطريق في منطقة خفيفة التضرس الى الغرب من وادي العقيق .

وبعد خرمان يتجه ناحية الجنوب الغربي فيعبر خط طول ٣٠ — ٤٠ شرقاً ويلتقي بوادي الضريبة ، غرب أم عشور ، والمنطقة مضرسة . وفي تحديد موقع ذات عرق يقول الحربي : من غمرة الى ذات عرق ٢٠ ميلا ، وبينهما أوطاس على ٨ أميال بعد غمرة . وفي موضع آخر يقول أن أهل ذات عرق يقولون أنهم أهل الغور «غور وادي الشامية» . وحدد البغدادي المسافة بين غمرة وذات عرق بـ ٢٦ ميلا ، وحددها الجاسر بـ ٣٢ كيلومتراً . لهذا يحتمل أن يكون موقع ذات عرق بين منابع وادي الضريبة وأم عشورة ويشير هذا الى أن الموقع يقترب من دائرة عرض «٥٥ — ٢١ وخط طول ٢٥ — ٤٠ شرقاً» .

وتضرس المنطقة رغم الطريق على سلوك الغور الذي يسير فيه وادي الشامية وفي ذات عرق محل احـــرام أهل العراق ، ومكان الاحرام موضع مسجد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، دون ذات عرق بميلين ونصف ، وسميت ذات عرق بهذا الاسم نسبة الى عرق في جبل أبيض ، ويطلق أهل ذات عرق الاسم على الجبل كله . ويقـــول السمهودي «وفاء الوفاء» عن الاسدي : ان بركة أوطاس يسره عن الطريق بائنه عن المحجة . فاذا صرت عند الميل الثامن رأيت هناك بيوتاً في الجبل خربة يمنة على الطريق ، يقال أنها ذات عرق الجاهلية . ومن وصف السمهودي يتضح أن ذات عرق «الجاهلية» يمين طريق الحج للمتجه الى مكة المكرمة وقبلها بميلين ونصف يوجد ميقات احرام أهل العراق ، وان موضع ذات عرق تحول في عهد الاسلام الى موضع جديد يقترب من ميقات الاحرام ويؤيد هذا ما ذكره الحربي نقلا عن عبد الله بن عمرو عن محمد بن زمام الهلالي عن أبيه . وبعدها يسير الطريق في منطقة شديدة التضرس ومسار الطريق من الشمال الى الجنوب ويصل منسوب الارتفاع في بعض أجزاء المنطقة الى ٨٨٢ متراً فوق مستوى سطح البحر قرب بئر البائة . ولصعوبة التضاريس في هذا الجزء يسير الطريق مع منابع وادي الشامية التي تأتي من جنوب حرة رهاط. ووصف الحربي صعوبة الطريق بقوله تسير في عقاب صعبة وخشونة ، وجبال ثم يتابع الطريق سيره في اتجاه نحو الغرب بانحراف قليل نحو غرب الجنوب الغربي ، ويسلك غور وادي الشامية حتى يصل الى نقطة لقاء وادي الشامية مع وادي اليمنية ونقطة اللقاء موضع بستان ابن معمر «بستاني بني عامر» .

والمسافة السابق وصفها هي المحصورة بين ذات عرق وبستان ابن معمر حيث الموقع المحتمل لذات عرق . ولقد قدرها ابن خرداذبة بـ ٢٢ ميلا . وجاء تقدير ابن رستة مماثلا . وقدرها الحربي بـ ٢١ ميلا وهكذا الفرق بين التقديرات السابقة لا يتجاوز الميل الواحد . وبستان ابن معمر ، كما صحح اسمه الجاسر عند مجمع وادي الشامية واليمنية قرب بلدة سولة الحالية . ولقد ذكرت على اللوحة ٢١٠ ، أبحاث جيولوجية «صلاح» وهذا خطأ وذكرت البلدة في الماضي سام سولتين ، وقدر المسافة بين البستان ومكة المكرمة كل من ابن رستة والمقدسي بـ ٢٤ ميلا وهكذا ينتهي الطريق الى مكة المكرمة ●

سيد عبد المجيد بكر — جامعة الملك عبد العزيز — جدة

الطاق

تعود **محاولات الانسان في البحث عن مصادر للطاقة لتعوضه عن جهده الجسدي الى نحو أربعة آلاف سنة مضت . وقد حاول بخبرته القليلة وبوسائله البدائية للافادة من الشمس والرياح قدر ما وسعته الحيلة وحالفه الحظ .**

غير أن استغلال الانسان لمصادر الطاقة على اختلاف أشكالها ظل دون معدل استغلاله للزيت وخاصة المئة سنة الماضية ، كما أن استغلاله للزيت لم يقتصر على انتاج الطاقة وحسب وانما تعداه الى انتاج مئات وربما آلاف المنتجات الأخرى التي يشكل الزيت أو أحد مشتقاته جزءاً منها .

ونظرًا لازدياد الطلب على الزيت كوقود وكمادة أساسية لكثير من الصناعات فقد أخذ العلماء والمؤسسات الخاصة والعامة في البحث بوسائلهم الحديثة للاستفادة من مصادر الطاقة الأخرى المعروفة للانسان . وقد يكون من الصعب على المرء أن يتخيل الصينيين ، قبل ثلاثة آلاف سنة ، وهم يتخذون من الغاز الطبيعي مصدراً للطاقة ، ينقلونه من أماكن تسربه من الأرض بواسطة أنابيب اتخذوها من الأغصان المجوفة ، يصلون بعضها ببعض الى أن تبلغ المكان الذي يريدون .

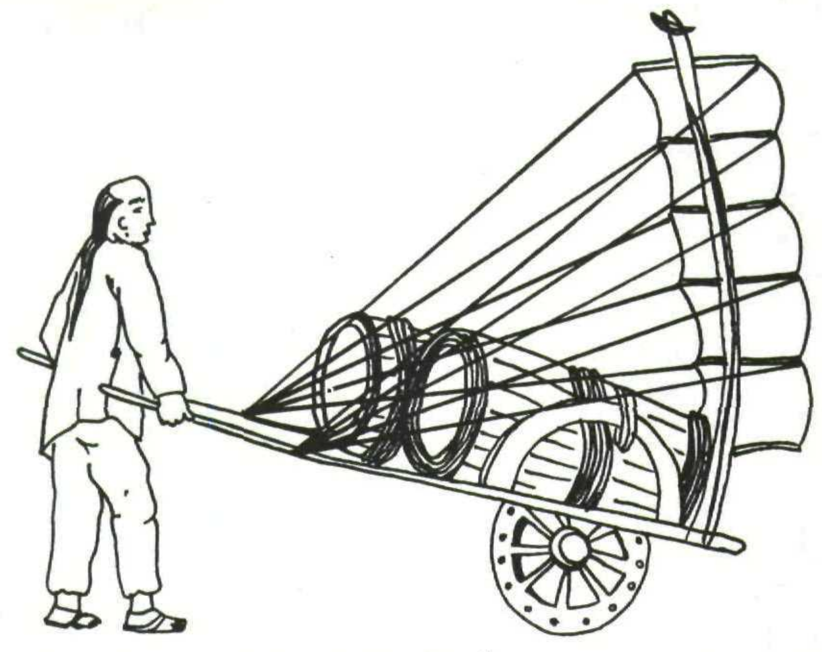
ومع أن الوسائل التكنولوجية كانت معدومة في تلك الأيام ، إلا أنهم لم يعدموا الحيلة والوسيلة في استخراج الزيت من باطن الأرض . ويذكر المؤرخون أن الصينيين قد حفروا في حوالي عام ٢٠٠ ق. م. آباراً بلغ عمقها ٣٠٠ قدم . وقد تمكن العرب في ابان حضارتهم من تقطير الزيت الخام واستخدام النظيف منه في وسائل الاضاءة ، كما تمكنوا من تطوير تلك الوسائل بشكل متقدم

قد يطور العلماء محركات نووية للمركبات الفضائية يوماً ما في المستقبل .

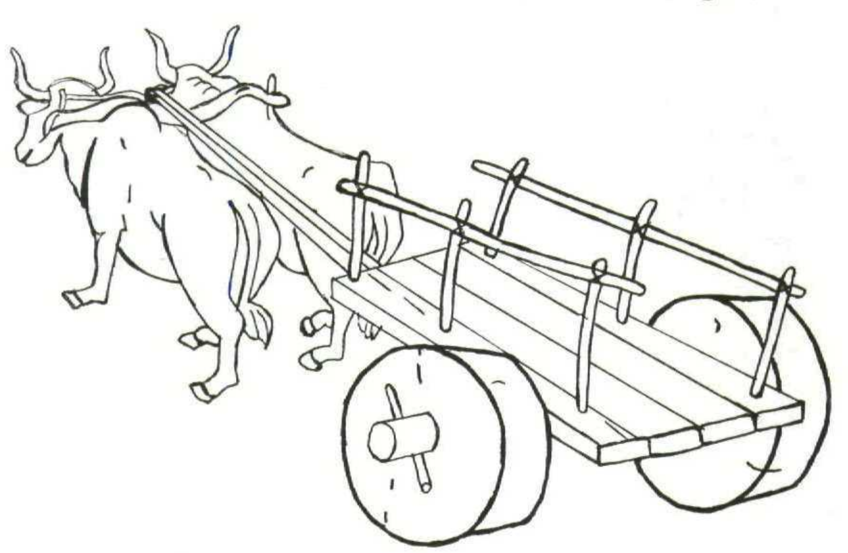
حتى أصبحت عملية التقطير صناعة مهمة في دمشق . كذلك وجدت آثار العرب ، في تلك الصناعة في أسبانيا وفي بلدان غربي أوروبا . وتشير بعض المصادر الى أن الهنود الأوائل قد حفروا بعض الآبار بحثاً عن الزيت في ولايات كنتكي وبنسلفانيا وأهايو في الولايات المتحدة الأمريكية ، كما تدل الشواهد على ذلك .

وفي حوالي عام ١٦٠٠م نقلت شركة هولندية شحنة من « التراب الزيتي Earth oil » من جزيرة سومطرا الى أمريكا مسجلة بذلك الخطوة الأولى في نقل الوقود . وفي حوالي عام ١٨٠٠م أخذ غاز الفحم يغزو الأسواق فأضيئت به شوارع عدد من المدن مثل لندن ونيويورك وبوسطن وبلتيمور . وفي تلك الفترة وضعت أسس تكرير زيت الفحم في فرنسا وفي سكوتلاند ، ومن ثم تطورت تلك الأسس لتصبح بعد ذلك نماذج وأساليب لتكرير البترول .

وفي تلك الحقبة أيضاً كان هناك رجال يعملون لتطوير الطاقة مثل « جيمس واط James Watt » وهو مهندس اسكتلندي عاش بين ١٧٣٦ و١٨١٩ وعمل على تحسين الآلة البخارية. كما مهد شخص انجليزي آخر يدعى «نيوكمن Newcomen» لابتكار المحركات ذوات الكبّاس — Piston Engine وبحلول عام ١٨٠٠ كان هناك العديد من المخترعين يجرون محاولاتهم وتجاربهم لتطوير طاقة متحركة تقوم مقام الحيوانات الأليفة لجر عربات الفحم الصغيرة الى خارج المناجم ، وبعد نحو عشرين سنة تمكنوا من استخدام بعض المعدات بدل الحيوانات في رفع عربات الفحم من المناجم ، كما بدأوا بمحاولات أخرى لاستبدال الخيول التي تجر عربات البريد بين المناطق والبلدان ، وكان ذلك ايذاناً بتخفيف الجهد الجسدي عن الانسان وبالتالي عن الحيوان .



قبل مئات السنين استخدم الصينيون نوعاً من الأشرعة كانوا يربطونه الى ما يشبه عربة صغيرة فتساعدهم الريح على دفعها مشكلة بذلك مصدراً للطاقة .



استخدم الانسان الحيوانات الأليفة لتخفف عنه الجهد الجسدي . ولا تزال هذه الحيوانات حتى اليوم مصدراً مهماً للطاقة .

مصادرها الأولية

وفي عام ١٨٥٩ حفرت أول بئر للزيت بالقرب من تيتوسفيل – Titutsville في ولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية ، فكانت بداية عصر البترول الذي نشهده اليوم .

وفجأة بدأ الزيت ، الذي عرف كمصدر للوقود منذ مئات السنين ، يأخذ طريقه ويحول مع مرور السنين ، أسلوب الحياة وطريقة العيش في مختلف أرجاء العالم ، ويمهد لقيام نظام صناعي ضخم وحضارة عصرية متقدمة .

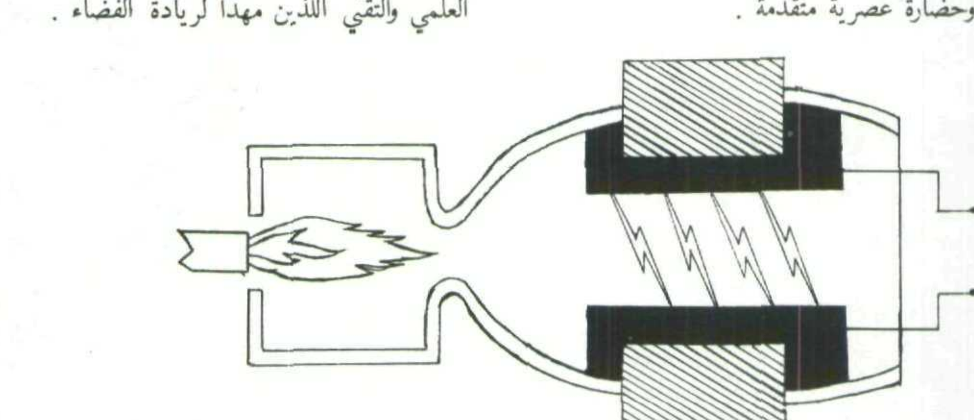
وها نحن اليوم نرى أثر الزيت وتأثيره في مختلف المجالات الصناعية والزراعية والعمرانية والعلمية والصحية والاجتماعية .. الخ واذا ما قيل بأننا نعيش اليوم في عصر الفضاء أو في عصر الذرة فمن الأولى أن نقول في عصر الزيت ، فهو الذي مهد السبيل ليبلغ العالم ما بلغ من تقدم في البر والبحر والفضاء ، فتوفر الزيت ساعد على توفير الرخاء لكثير من بلدان العالم كما ساعد على تقدم البحث العلمي والتقني اللذين مهدا لريادة الفضاء .

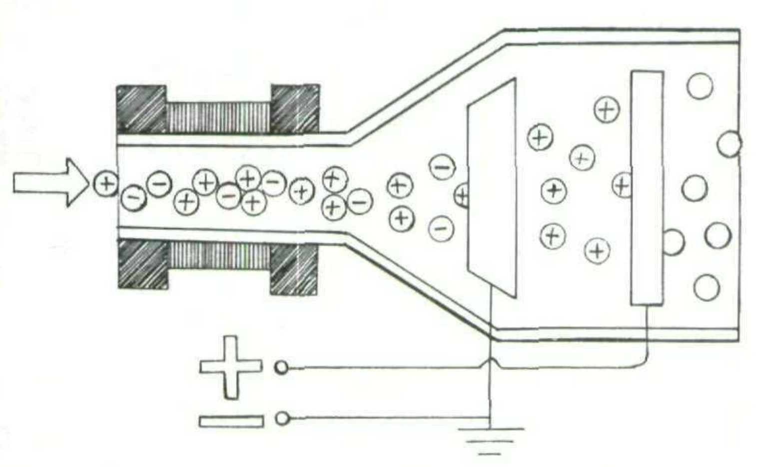
ولقد لعب الزيت دوراً مهماً في المجال الاقتصادي خلال السنوات الخمسين الماضية ، ويحتمل أن يظل دوره هذا قائماً خلال السنوات الثلاثين أو الخمسين القادمة ، وربما لأكثر من ذلك ، فهذا رهن بما يبلغه العالم من تقدم في الحصول على الطاقة من بدائل أخرى لتقوم مقام الزيت أو تسد النقص الذي يتوقع أن يحدث في المستقبل .

ولقد مرّ موضوع البحث عن مصادر بديلة خلال فترة ركود أو تراخ في الخمسين سنة الماضية نظراً لوفرة الزيت ورخصه وسهولة الحصول عليه ، ولنظافته بالنسبة لمصادر الوقود الأخرى كالذرة والفحم . ولم يجهد العلماء أنفسهم ، سواء في المؤسسات العامة أو الخاصة في البحث عن البدائل حتى السنوات القليلة الماضية ، علماً بأن بعض مصادر الطاقة كالشمس والريح معروف منذ قديم الزمان ، وقد حاول الانسان الافادة منها ربقد ما أسعفه علمه وتفكيره .

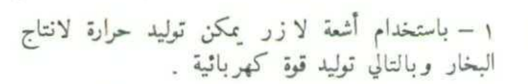
ومما تجدر الاشارة اليه أن مقولة وجود نقص في الطاقة ، مقولة غير صحيحة واستعمال خاطىء. فالنقص ، في الواقع ، هو في مصادر الزيت المتوفرة . أما الأرض بشكل عام فمليئة بمصادر الطاقة على مختلف أشكالها ولا يتوقع أن يحدث نقص فيها . فالشمس ، على سبيل المثال ، مصدر هائل للطاقة ولا يتوقع نضوبه . وحاجة العالم للطاقة يمكن توفيرها بأشكال كثيرة اذا ما استطاع العلماء تحويل مصادرها المعروفة الى طاقة يمكن استخدامها لمواجهة النمو الاقتصادي العالمي الذي يزداد تبعاً للنمو السكاني .

فالشمس ، منذ الأزل ، وستظل الى ما شاء الله ، تمد الأرض بطاقة حرارية كبيرة دونما خوف من نضوبها . والأرض لا تستخدم من هذه الحرارة غير جزء يسير تمتصه النباتات والأشجار وتحوله الى





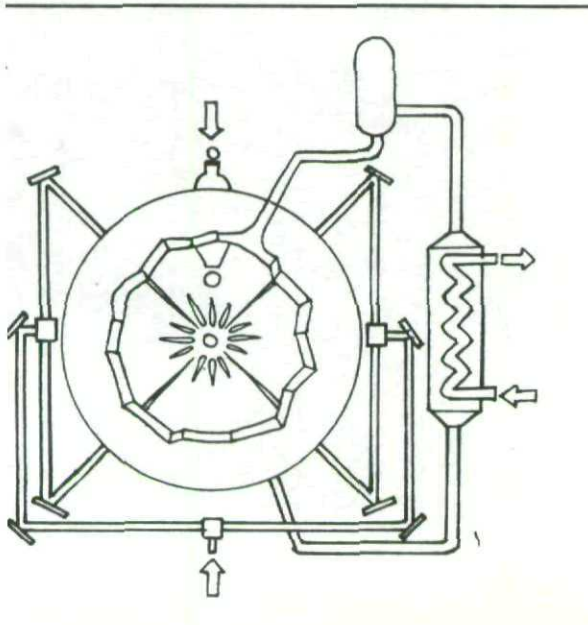
فوق : تمكن الخبراء من تطوير جهاز يحول اللهب مباشرة الى كهرباء . تحت : ان استعمال اسطوانة مغناطيسية يمكن أن يساعد في التحكم بانتاج الهيدروجين من مياه البحر لتوليد الكهرباء .



١ – باستخدام أشعة لا زر يمكن توليد حرارة لانتاج البخار وبالتالي توليد قوة كهربائية .

٢ – اذا استطاع العلماء الاستفادة من الحرارة الجوفية وضبطها فانهم بذلك سيوفرون الكثير من الطاقة البخارية في عدد من المناطق .

٣ – ان اختلاف حرارة الماء على سطح البحر عما هي عليه في أعماقه قد يوجد وسيلة لتوليد الطاقة بواسطة معامل حرارية متطورة .

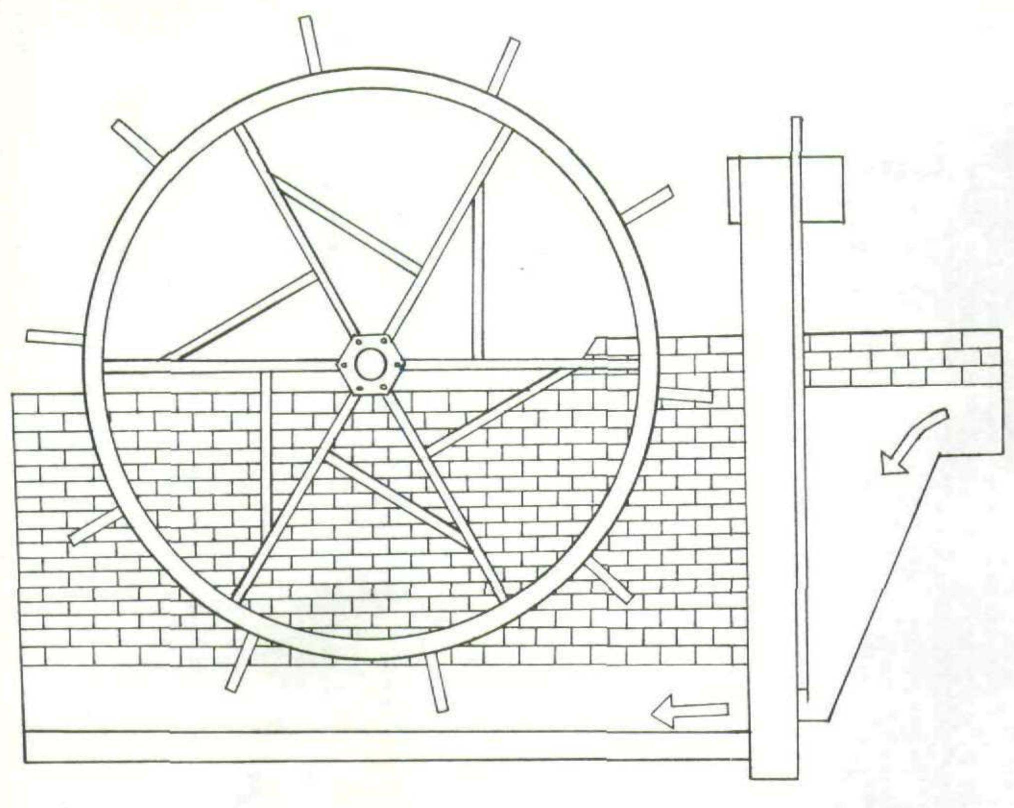


طعام مولد للطاقة عند الانسان والحيوان . أما القدر الأكبر من الطاقة الشمسية فينعكس على سطح الأرض ويتلاشى دون أن يستخدم .

وَالواقِع أن الشمس هي مصدر الطاقة الأساسي في الأرض . فما نحصل عليه من الفحم والزيت والغاز هو بقايا نباتات وحيوانات نافقة طمرت منذ ملايين السنين ، وبفعل الحرارة والضغط العاليين تحولت الى الطاقة التي نستخرجها اليوم من باطن الأرض . واستمرار أعمال التعدين واستخراج الفحم منذ ثمانية قرون والبدء باستخراج الزيت والغاز منذ نحو قرن من الزمن ، جعل من هذه المصادر الهيدروكربونية أهم المصادر ، غير الغذائية لتوليد الطاقة في العالم .

غير أن مخزون الأرض من هذه المواد محدود على هذه المواد في الازدياد . فالفحم مثلا ، يمكن أن يظل متوفراً لقرنين قادمين أو ثلاثة ، أما الزيت فيقدر العلماء بقاءه لمدة تقل عن قرن . وهذا لا يعني أيضاً أنهما ، أي الزيت والفحم ، سيتوفران طوال هذه المدة بالكميات المستعملة منهما حالياً . فالخبراء يتوقعون أن يبدأ انتاج العالم من الزيت بالتدني قبل نهاية القرن الحالي ، ولهذا بدأوا يفكرون في الاستفادة من مخلفات المواد الهيدروكربونية وتحويلها الى طاقة ، وكذلك البحث عن مصادر أخرى بديلة يمكن أن تقوم مقام الفحم والزيت والغاز ومشتقاتها .

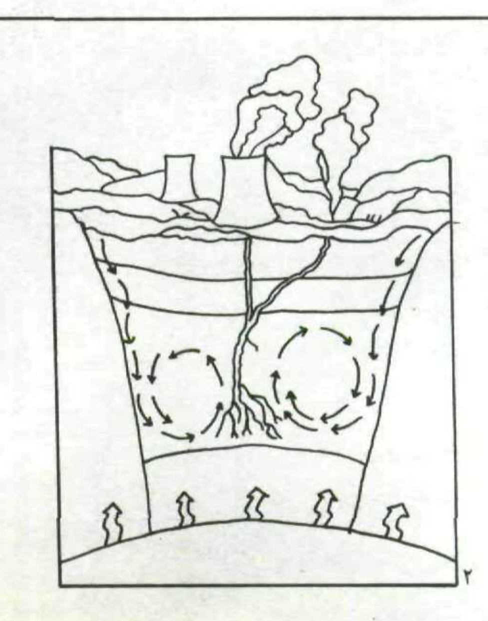
إنَّ المصادر الطبيعية البديلة موجودة ومعروفة منذ قديم الزمان ، فالشمس والريح والماء والحرارة الجوفية موجودة منذ الأزل ، وكذلك أصبحت الطاقة النووية في العصر الحاضر . وما من شك في أن العلماء سيتمكنون ، في مقبل الأيام ، من معرفة طريقة أو أسلوب يمكن بواسطته استغلال هذه المصادر الضخمة لتوليد الطاقة بتكاليف معقولة .



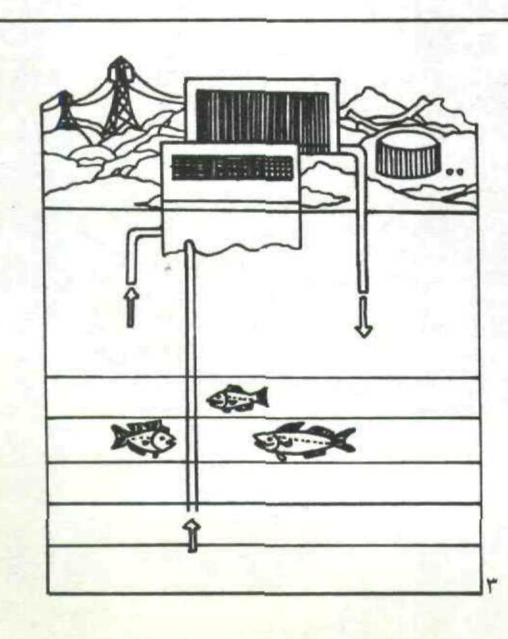
كانت المياه ولا تزال أحد مصادر توليد الطاقة ، إلا أن استعمالها اليوم تطور بحيث أصبحت مصدراً لتوليد القوة الكهربائية في كثير من البلدان .

وخلال هذه المدة التي ستنقضي قبل أن يتحقق ذلك ، يسعى علماء آخرون لايجاد زيت اصطناعي يستخلصونه من الفحم وصخور السجيل والرمل الاسفلتي بكميات تجارية واقتصادية . فالزيت المعروف محدود الكمية فاذا ما نضب انتهى أمره . ولذا نجد العالم اليوم أكثر اهتماماً وأنشط بحثاً لتوفير مصادر جديدة للطاقة تستخدمها الأجيال القادمة ، إما بتطوير وسائل استخراج الفحم واستغلاله ، أو بايجاد وسائل أنظف لاستخدامه دون أن يحدث تلوثاً في البيئة ، أو بالبحث عن خام اليورانيوم اللازم لتوليد الطاقة النووية ، أو ببذل جهود أكبر لتطوير الأشعة الشمسية ، أو بابتكار وسيلة لاستخراج الحرارة الجوفية . وبهذه جميعها وبغيرها ينعقد الأمل على الاستمرار في دفع عجلة التقدم والبناء والرخاء ●

ابراهيم أحمد الشنطي – هيئة التحرير



٢



٣

الأدب بين الطبع والتكلف

بقلم : الاستاذ أحمد الجندي

لا يمكن للانسان أن يكون صاحب فن إلا اذا كان مفطوراً على الفن ، أي أن يكون قد ولد ذا طبيعة فنية تهديه الى عالم الابداع ، فكأن الفطرة مزية تضاف الى بعض مخلوقات الله ممن يصطفيهم خالقهم ليؤدوا واجباً من الواجبات الانسانية وليقوموا بعمل يكون زينة الحياة .

هناك إذن صفات انسانية تخلق مع المرء وصفات أخرى يمكن أن يفيدها الانسان من بيئته أو قراءاته أو غير هاتين من المؤثرات التي قد توجد مع الحياة فتطورها وتنقلها من حال الى حال ، وهي صفات تكتسب اكتساباً ولا توجد بالفطرة .

والصفات المخلوقة لا يمكن أن تنتقل الى الانسان ، أو توجد فيه إلا خلقة ، ولا يمكن أن تأتي عن طريق الثقافة والتعلم والمعاشرة . وما سمعنا أبداً برجل ولد ثقيل الظل ثم أصبح خفيفاً على النفس ، ولا نعتقد أن من ولد جباناً يمكن أن يكون شجاعاً مقداماً ، ولا رأينا صاحب نكتة تعلم النكتة من احد ، وقس على هذه الأمثلة صاحب الموسيقى والغناء فانه لا يمكن أن يبرع بهذا الفن ما لم يكن قد وهب الصفة الفنية والموهبة الموسيقية . وكذلك قل في الرسم والشعر والنحت وغيرها ، انها جميعاً صفات فنية تولد مع المرء ثم تتطور وتتقدم مع تقدم السن في مجال الحياة .

ولكن هذه الصفات الفنية ذاتها قد تكون رائعة معجبة أو تكون بسيطة تافهة ، ويكون الفنان تبعاً لموهبته كبيراً أو صغيراً . ومن هنا فقد تنوعت المواهب واختلف أصحاب الفنون في تقدمهم وتأخرهم ، وقد تحدث الشاعر العربي ببساطة ودقة فأوجز هذا المعنى وصور التنوع الفني عند الشعراء خاصة وجعل لهم تصنيفاً بارعاً في هذا الرجز الطريف :

الشعراء فاعلمن أربعة
فشاعر يجري ولا يجرى معه
وشاعر يضرب وسط المعمعه
وشاعر لا تشتهي أن تسمعه
وشاعر لا تستحي أن تصفعه

فهو يشير من طرف خفي الى النبوغ الفطري ويوضح بطريقته الشعرية الناعمة أن المرء يولد

شاعراً ويخلق فناناً ، واذا لم يولد على هذه الفطرة فانه لن يصبح صاحب فن مهما حاول الوصول الى هذه المرتبة كما أشار الى هذا شاعر عربي آخر فقال :

اذا بلغ الفتى عشرين عاماً
ولم ينبغ فليس له نبوغ

وهو يعني بقوله أن الشاعر أو أي فنان آخر لا بد أن تظهر طبيعته الفنية في سنيه الأولى المبكرة وظهورها في هذه السن دليل قاطع على الموهبة فاذا اجتاز مرحلة الشباب وظل صامتاً فانه لن يكون فناناً أبداً ، فاذا أصبح فناناً رغم ذلك فانه يكون ضعيفاً في ابداعه متخاذلا في طبيعته ، لأن الطبيعة لم تصنع هذا الفن الذي جاء عن طريق الدرس والاجتهاد والمران ، وهذه كلها لا تكفي ولا تجعل من الرجل فناناً مرموقاً .

ولقد عرفنا عدداً كبيراً من شعراء العرب الذين بدأوا حياتهم الفنية باكراً فعرف الناس الشعر عندهم وهم بعد في سني الطفولة . وقد رويت أقاصيص كثيرة في الأدب الجاهلي حول هذا ونحن وان كنا لا نجزم بصحة هذه القصص ، غير أننا نجد فيها دليلا على الفطرة الشعرية والولادة الفنية كقصة الشاعر امرىء القيس وما لقيه من العذاب لأن شاعريته تأخرت في الظهور ونحن نذكر كيف طلب الماء وهو في سجنه فحمله اليه الخادم ولكنه أبى أن يسقيه واصطنع كسر الجرة فقال الشاعر ناطقاً بالشعر :

كسر الجرة عمداً وسقى الأرض شرابا

كما نذكر قصة طرفة بن العبد يوم ذهب مع قريبه للصيد فأكملت القبّرة الحبّ وذهبت قبل أن تقع في الفخ الذي نصبه الشاعر وهي تصفر فقال :

يا لك من قبّرة بمعمر
خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري
قد رُفع الفخ فماذا تحذري
لا بد يوماً أن تصادي فاحذري

وهذا الرجز الذي يدل على الطفولة من جهة كما يدل على الاختراع والوضع ، انما هو دليل أيضاً على الاهتمام بالنبوغ المبكر في الشعر ، فلقد تأثر الغلام الصغير وحزن لخيبة مسعاه فلم يستطع الشكاة إلا بالكلام الموزون المقفى وهو جزء من الطبيعة العربية في الصحراء كما هو جزء من طبيعة هذا الغلام الذي طبع على الشعر وولد ليكون شاعراً . وهذا أبو نواس الطفل الصغير الذي رآه أستاذه «والبة بن الحباب» في دكان عطار فتوسم فيه الشعر وتنبأ له بمستقبل كبير ، ولم يخيب الشاعر النابغ أمله فكان من أعظم شعراء العربية . ونحن نذكر أيضاً البحتري يوم جاء الى حمص وهو شاب ليمدح محمداً بن يوسف الثغري واليها ، وعلى مسمع من الشاعر الكبير ابي تمام فأنشد يقول :

أأفاق صب من هوى فأفيقا
أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

لقد كان يومئذ في أول عهده الفني . وكذلك قل في المتنبي يوم قال ما قال من شعر الصبا حين سجنه لؤلؤ في حمص .

ولو شئنا أن نعدد لك الشعراء الذين عرفوا بالشاعرية الباكرة لأكثرنا من الأمثال التي لا يتسع لها هذا البحث . وما دمنا نؤكد أن الفنان لا بد أن يولد فناناً فكيف يمكن أن يوجد أصحاب الفنون الذين لم تظهر عليهم آثار الفن إلا بعد زمن طويل من حياتهم ؟ ويفسر هذا أن الانسان قد يملك مواهب أخرى غير الفن تعينه على اختيار طريق حياته وتساعده على السير في الميدان الذي يراه موافقاً لطبيعته . فقد يكون المرء حاد الذكاء أو قوي الذاكرة أو سريع البديهة وهذه الصفات قد تدفع به الى الاستفادة من كل ما تقع عليه عينه ، فاذا أعين بعد ذلك بالصبر والجلد وحسن الفهم أمكنه أن يصل الى ما يريد ولو كان الذي يريده الفن ذاته ، ولكن ما يأتيه انما يأتي عن طريق الدرس والاجتهاد لا عن طريق الالهام والفطرة .

ولقد عرفنا الكثير من الشعراء ممن أوصلهم اجتهادهم الى درجة ممتازة في مضمار الفن الشعري مع أنهم لم يولدوا شعراء ولم يكونوا مفطورين على هذا الفن ، ومنهم من برع ونبغ بعد الأربعين ولم تكن طبيعته في صباه تدل على أنه سيكون شاعراً كبيراً ، وكأن هذه الفطرة الشعرية قد كانت خبيئة لديه فلم تتكشف إلا بعد أن تجاوز به العمر حد الصبا . ونحن نعلم من دراسة الشاعر الفرزدق ومطالعة آثاره أنه شاعر اعتمد على العلم قبل أن يعتمد على الإلهام الفني وكذلك أبو العلاء المعري .

لقد أنعم الله على هذا الصنف من الشعراء بموهبة الذكاء والحصافة وقوة الحافظة وسرعة البادرة ، فاستعاضوا بها عن الفطرة وتوصلوا بالدرس والاجتهاد الى درجة عالية من الشهرة .

ولكن هناك فارقاً كبيراً بين شعر الموهبة وشعر الدرس والنبوغ . فالشاعر الموهوب يدفعه الى قول الشعر طبع أصيل وباعث شعري قوي يملي عليه شعره ، فيكتب هذا الشعر وكأنه يتنفسه تنفساً دون تعب أو كد . هكذا كان جرير الشاعر الموهوب ، ينظم القصيدة الطويلة الرائعة دون أن يحس بفتور أو نصب كما فعل يوم هجا الراعي النميري فلما وصل الى بيته المشهور :

فغض الطرف انك من نمير
فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

أطفأ المصباح وقال : لقد قتلته . أما الفرزدق فقد كان يشكو صعوبة النظم ويتحدث عن نفسه فيصف تعبه وانه ربما كان قلع الضرس أهون عليه من نظم بيت من الشعر .

فالشعر إذن نوعان لاثالث لهما ، الأول شعر الطبع والموهبة ، والثاني شعر الكلفة والجهد ولكل من هذين اللونين صفات تختلف عن صفات الآخر ، فشعر الموهبة يشعرك حين تقرؤه بأن الطبيعة تمليه والفطرة تكتبه فهو أشبه بما في الطبيعة من أنهار وجبال وأودية وحراج ، انه صادق لا كذب فيه ولا بهرج ، في حين أن الصنف الآخر ، أي شعر الكلفة ، لا يخلو من التنميق والطلاء الخادع كما لا يخلو من أثر الجهد الذي يسيطر على الشاعر حين يريد النظم كأولئك الشعراء الذين لجأوا الى المحسنات اللفظية التي هي بنت الكلفة ووليدتها ، فلقد أضاعوا الكثير من وقتهم في البحث عن هذه المحسنات يزينون بها أشعارهم ويخفون ما في هذه الأشعار من ضعف في الشاعرية ، وتهافت في الطبع الفني ، ولو تذكرت بيت الوأواء الدمشقي ، المنسوب خطأ الى يزيد بن معاوية لعجبت للتصنع والكلفة اللذين يبدوان عليه وهو :

وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
وردا وعضت على العناب بالبرد

انها صنعة ثقيلة وكلفة مرهقة للناظم والقارىء على السواء . أما شاعر الموهبة فتدعوه موهبته الى النظم والابداع وهو يأتمر بأمرها ويعمل برأيها .

لقد كان أبو تمام شاعراً كبيراً ولكن فطرته لم تكن تعتمد على الطبيعة بل على الفكر والجهد والعلم . والالهام عنده يأتي في المرتبة الثانية ، فاذا جاءه الهامه كان مقيداً بالدرس والفكر مكبلا بقيود كثيرة من الكلفة . ولقد وصفه صاحب العمدة ابن رشيق القيرواني وصفاً أنصفه فيه فقال : «يذهب الى حزونة اللفظ ويأتي للاشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة» . وهذه الصفات لا تتفق مع صفات الشاعر الذي يتناول شعره من موهبته والذي يأتيه الشعر بلا عناء أو كلفة .

ان شاعر الموهبة قد ينظم القصيدة الطويلة بجلسة واحدة كما كان يفعل جرير في القديم وشوقي في العصر الحديث ، وتكون معانيه هينة عذبة على الفكر لا عمق فيها ولا بعد . أما أبو تمام فعلى عكس ذلك ، فان قارئه يحتاج معه الى كثير من التأمل والمشقة ليفهمه وليصل الى اللذة المرجوة من ورائه . ويؤكد أبو الحسن الجرجاني هذا الرأى في ابي تمام فيقول : «اجتلب المعاني الغامضة وقصد الأغراض الخفية فاحتمل منها كل غث ثقيل ، فصار هذا الجنس من شعره اذا قرع السمع لم يصل الى القلب إلا بعد إتعاب الفكر وكد الخاطر» . وهذه صفات لاتخرج عما تقدم من تكلف الشاعر وسلوكه سبيل التعسف للوصول الى معانيه مما يتعب ذهن القارىء ويكد عقله وروحه على حد تعبير الجرجاني .

ولعل الآمدي في موازنته قد كان أصرح أولئك النقاد وأقربهم الى حقيقة طبع ابي تمام في الكلفة ، كما كان أشدهم احساساً بتصنع الشاعر فجاء بهذه العبارة حوله : «حتى صار كثير مما اتى من المعاني لا يعلم غرضه إلا مع الكد والفكر وطول التأمل ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن» . وما رأيك بشعر لا تفهم ما فيه إلا ظناً ولا تقدر على تفسيره إلا رجماً بالغيب وهذا لعمري التكلف المقيت الذي يذهب برونق الفن ويضيع نكهة الشعر ولذته . انه شعر يشبه هذه الرسوم التي يرسمها بعض غلاة الرمزية التي لا تعنى بفهم الرائي ومتعته ونشوته الفنية ، بل لقد بالغ بعضهم فجعل من صفات الفن البارزة صفة الغموض والاستغلاق وعدم قابلية الفهم ، لأن الفهم يفقده غايته العليا ، كما يقولون .

ولقد يقود التكلف صاحبه الى غايات تبعد به عن الفن وتورطه في مجاهل من التعقيد والسطحية والبلادة مما يسيء الى مكانته الفنية . ولقد تكلف أبو تمام كل أنواع البديع ، كما تكلفها غيره ولكنه كان مبالغاً في الكثير مما أورده من هذا البهرج اللفظي حتى لجأ الى استعارات وتشبيهات بعيدة عن العقل والفهم الصحيح ، وما قولك بمن يشبه وجه ممدوحه بالمحراث لأن هذا الممدوح شجاع يهجم على العدو تحت العجاج وذلك في قوله :

ضاحي المحيا للهجير وللقنا
تحت العجاج تخاله محراثا

أما البحتري ، وهو شاعر الفطرة الأصيلة ، فقد كان يقول الشعر بوحي من إلهامه ، لذلك كان شعره سهلا كالغناء ، عذبا كالماء ، مطرباً كالسماع . ولقد قارن الأدباء القدامى بين هذين الشاعرين مقارنة فنية رائعة تفسر لنا الفرق بين الطبيعة والكلفة وبين الالهام والصنعة . فقال الثعالبي يصف البحتري : «ان كلامه يجمع الجزالة والحلاوة والفصاحة والسلاسة ، ويقال أن شعره كتابة معقودة بالقوافي» .

كان شوقي ينظم الشعر حيثما كان وكيفما اتفق ، لا يتقيد بزمان أو مكان ، ينظمه ولا يكتبه بل يختزنه في ذاكرته ثم يعود اليه بعد مدة قد تطول أو تقصر فيتم القصيدة من حيث تركها وكأنه تركها منذ هنيهة ، فاذا استتمت القصيدة رجع اليها ببعض التنقيح وقد لا يحتاج الى شيء من ذلك في أكثر شعره . أما حافظ ابراهيم فكان ينظم البيت والبيتين فيكتبهما في ورقة يضعها في جيبه ثم يخرجها بعد أيام ليضيف إليها ما أسعفته به القريحة ، وهكذا حتى تتم القصيدة . فاذا نشر الشاعران قصيدتيهما ظهر الفرق بيّناً والاختلاف واضحاً ، وتبين الطبع من الجهد والراحة من التعب . لقد كان أحمد شوقي ينظم الشعر بسهولة ولو قبل ساعات من موعد إلقاء القصيدة ، في حين أن حافظ ابراهيم قد اعتذر حين زار دمشق عن إلقاء أو نظم شيء من الشعر وظل أياماً لا يقدر على قول شيء إلا ببيتين وحيدين قالهما في حفلة أقيمت له في بهو مجمع اللغة العربية بدمشق .

إن الطبيعة هي التي تحمل لواء الفن في الشعر وغيره ، وفطرة الشاعر هي الأساس في العبقرية الشعرية ، والطبع هو الذي يلهم الشعر ويمليه على الشاعر . وقد فطن العرب الى هذه الناحية فوصفوا الشاعر الحق بانه مطبوع وقديماً قال المتنبي :

أبلغ ما يطلب النجاح به
الطبع وعند التعمق الزلل

وكلام المتنبي هذا يدل على عبقرية وفهم للأمور يشهد له بهما شعره ، فمن أراد أن ينجح في الحياة فان عليه أن يسير على هوى الطبيعة فاذا خالفها غُلب على أمره لأن الطبيعة أقوى منه ولن يبلغ النجاح من خالف هذه القاعدة . ولقد خالفها المتنبي فلم يصل الى رجائه من الملك والسيطرة لأنه سعى الى شيء لا يتناسب وطبعه الفني الشاعر . والتعمق ، هنا ، في قول المتنبي هو الجور عن القصد واختيار الطريق الصعب الذي يؤدي الى الضياع وقد قيل قديماً : من سلك الجدد أمن العثار .

لذلك أخفق أبو تمام حين سعى الى الشعر عن طريق التعسف واللجوء الى المعاني البعيدة التي لا تخطر على البال ، ونجح البحتري لأنه ترك نفسه على سجيتها وسار على هوى الطبيعة فكان شعره كالغناء يبعد بالقارىء عن الجهد والعناء .

ان الفن وليد الفطرة الصحيحة ، وما عداه فهو وليد الجهد والتكلف والتعب الذي يحول دون الطبيعة وظهورها على حقيقتها الرائعة الجميلة ●

أحمد الجندي – دمشق



غيرة

للشاعر : الياس قنصل

أيُّ معنىً فيك من سرِّ الهوى   بثَّ في نفسيَ أطيافَ الألم
فاذا حُبِّي منها ظمأ   لافحٌ ليس يرويه قسم

* * *

كانت الدنيا بعُرفي جنةً   كلّ ما فيها ربيعٌ وشباب
فغدَت منكِ جحيماً نارُها   زفراتٌ من شكوكٍ وارتياب

* * *

أنتِ طعّمتِ هنائي بالشّقاء   ونفشْتِ الحزْنَ في مستقبلي
فحياتي حيْرةٌ جامحةٌ   كاد يذْوي في أسَاها أملي

* * *

أنا أحيْا وكأني تائهٌ   في فلاةٍ ليلُها ليس يزول
يغمرُ البِلْبالُ دربي نافثاً   في حنايا أضلُعي سُمَّ الذّهول

* * *

لا تقولي غيرة زوَّرها   من عداء الناسِ حقدٌ وافتراء
لم أعدْ أرضى بما قدّمتِه   في غَرامي من براهينِ الوفاء

* * *

كلما افترَّ محياكِ الجلَى   ما زها في الوردِ من حُسْنٍ وفن
أفتبقى هذه الروعَةُ إنْ   ابعَدتْني عنكِ أمواجُ الزمن ؟

* * *

انني أعرف ما تبعثُه   فيكِ نجْوى ذكرياتي من حنين
فمتى كان خيالُ الذِّكْرِ من   وجْدِ غيْري فبماذا تشعُرين ؟

* * *

أيرى حسنَكِ غيري مثلما   هو في عينيَّ رمزٌ للكمال ؟
ويمّني النفْسَ بالوهْمِ كما   تخدعُ الأوهامُ نفسيَ بالمُحَال ؟

* * *

إنَّ للغَيْرةِ في قلبي لظىً   منه حالتْ نسماتي لهبَا
خبّريني كيف أدري ان يلُحْ   لكِ فكرٌ لستُ فيه السببا ؟

إرشادات حول سرطان عنق الرحم

وأهمية الوعي الصحي عند الإناث

بقلم : الدكتور سعيد محمد الحفار

لا تزال المدنية المعاصرة على الرغم من اتساع باعها في كثير من المجالات تجد الصعوبات الجسام في معرفة كنه العديد مما تعانيه البشرية من ويلات تحدث في أبدان الناس أمراضاً خبيثة ، وعلى رأس هذه الأمراض داء خبيث لا يعرف الصغير ولا الكبير ، ولا الذكر ولا الأنثى ، انه داء السرطان .

يسعى هذا الداء الى الفتك بكثير من الناس بين سن الأربعين والسبعين بوجه خاص وليس هذا أمراً ثابتاً ، فكثيرون هم اليافعون الذين يصابون به وهم في ريعان الصبا . وقدر عدد الاصابات به في الولايات المتحدة الأمريكية حالياً بثلاثة أرباع المليون في العام ، وفي العالم بأسره في حدود خمسة ملايين ونصف المليون في العام الواحد . ويعتقد العلماء أن هذا الداء يعتبر من أهم العوامل التي حالت دون الارتفاع المتوقع في متوسط العمر في كثير من البلدان النامية ، ومن هذه الناحية كان لا بد من ظهور اهتمام كبير في كثير من الدول تجاه مشكلة السرطان، واعتبرت بحوثه أحد حقول التعاون العلمي التي يرجى من ورائها الكثير . ولقد انصب اهتمام الباحثين في الواقع على عدد من النقاط كان أهمها إلقاء الضوء على الطبيعة الحيوية للورم الخبيث ، وكيفية تحول الخلية العادية الى خلية خبيثة تحت تأثير مركبات كيميائية أطلق عليها اسم «السرطانات – أو مسببات السرطان» ، ودراسة ملامح الجهاز الوراثي لخلية الورم ، بغية معرفة عمليات البناء الحيوي والاصطناعي التي تحدث في القشرة ما بين انقسام الخلايا ، والعمليات الآلية التي تثير عملية الانقسام ذاتها ، كما اتجه العديد من البحوث لتحديد نوعية السرطانات ومصادر انتشارها ، وتراكيزها الحرجة التي تسبب المرض ، وتحديد الصفات الثابتة التي تدل على بدء الاصابة بالسرطان ، وهي من أهم البحوث الحالية لما للكشف المبكر للداء من أثر في اسعاف المريض من براثن المرض .

وكان من نتيجة هذه البحوث الجدية التي تتعاون عليها كافة الدول المتقدمة بوجه خاص ان كشف السرطان فعلا عن بعض أسراره ، مما أدى الى حدوث تقدم كبير في دراسة المشكلة في العالم أجمع ، والى بث روح التفاؤل بالشفاء نتيجة وضع اجراءات أساسية للحد منه من جهة ، وتطوير سبل الوقاية منه وتشخيصه وعلاجه من جهة أخرى ، خاصة وأن الطب يعتقد بأن الوقاية هي أكثر الوسائل فعالية للتحكم في المرض ، فحماية الناس ضد المسببات الكيميائية للسرطان وحماية البيئة ، وتشجيع الناس على الامتناع عن التدخين وتوفير الشروط الصحية المناسبة ، وعلاج لداءات السرطان في الوقت المناسب ، كل هذه الأمور يمكن أن تساعد على الحد من انتشار الداء وزيادة نسبة الشفاء منه ، وبالفعل فان المتتبع للأحداث وتطورها في مجال علاج السرطان في المؤسسات

المتخصصة ، يرى بكل وضوح أن وسائل المعالجة الحديثة لهذا المرض قد جعلت شفاء ثلاثة أو أربعة من كل عشرة مرضى بالسرطان أمراً مؤكداً ، وقد أضحى العلاج أكبر جدوى بالنسبة لسرطان الجلد ، والشفاه وعنق الرحم ، كما أمكن مؤخراً تحقيق نجاح ملموس في علاج مرض «هودجكن» وغيره من الأورام .

وقد تقدم أسلوب المعالجة نحو الشكل المفيد حقاً بالنسبة لسرطان عنق الرحم حيث أوضحت الاحصاءات الأخيرة امكان شفاء حوالي ٦٠ — ٨٠ في المائة من الحالات . وقد بلغ عدد الذين تم شفاؤهم منه في الاتحاد السوفيتي حالياً حوالي مليون ونصف المليون معظمهم من النساء اللواتي أصبن بسرطان عنق الرحم وقسم منه تم شفاؤه من أنواع السرطان الأخرى .

أسباب سرطان عنق الرحم ونسبة الشفاء منه

يدل استعراض الدراسات الاحصائية والنشرات العلمية الصادرة عن مؤسسات البحث العلمي في مجال السرطان ، على أن نوعي السرطان المعروفين باسم سرطان الثدي ، وسرطان الرحم عند النساء ، هما اللذان استطاع العلم السيطرة عليهما الى حد ما ، وقد كانت البحوث في مجالتهما سباقة لغيرها ، لوفرة الاصابات بهما عند النساء . فقد نشرت احدى مجلات البحث الاحصائي الطبي في انكلترا ما يدل على أن نسبة الوفيات بين النساء نتيجة لآفات سرطانية ، تزداد باستمرار ، وقد بلغت أكثر من ١٨ — ٢٠ في المائة . وكان ٥,٩ في المائة من الوفيات ناشئاً عن آفات خبيثة ، سببها سرطان عنق الرحم .

كما دلت احصاءات أخرى على أن امرأة واحدة من كل ٧٠ امرأة في انكلترا مقدر لها أن تصاب بسرطان عنق الرحم ، وأن امرأة واحدة من كل مائة امرأة مقدر لها أن تموت نتيجة للاصابة به .

وتوضح الدراسات المتخصصة حول التحرّي عن أسباب اصابة النساء في سرطان عنق الرحم جملة من العلاقات العلمية يجب تبنيها باعتبار أن البحث فيها قد وصل مرحلة اليقين العلمي ومن بين هذه العلاقات :

* وجود علاقة بين سن الزواج والاستعداد لحدوث سرطان عنق الرحم .

* وجود علاقة طردية بين نسبة الاصابة بسرطان عنق الرحم ، وتعدد الولادات .

* وجود تناسب عكسي بين نسبة الاصابة والنظافة الجنسية ، أعني أن نظافة الجهاز التناسلي الأنثوي والعناية به من ناحية ازالة أي آثار للتخمرات العرقية وما أشبه ، تعتبر عاملا رئيسياً لدرء هذا المرض . فقد تبين للباحثين أن كثيرات من النساء كان سبب اصابتهن بهذا الورم الخبيث ناتجاً عن عدم نظافتهن الجنسية .

* وجود تناسب طردي بين نسبة الاصابة والالتهابات التي تصيب عنق الرحم .

* وجود تناسب طردي بين الاصابة بهذا الورم وبين وجود التهابات في عنق الرحم أو في الرحم بالذات ، وخاصة اذا كانت التهابات مزمنة ، فقد أتضح أن النُسيج المصابة بالالتهابات هي أقرب النُسج مثالا لهذا الداء .

وهنالك أسباب أخرى لسرطان عنق الرحم ، كُشف النقاب عنها ، وأسرار بقيت غامضة يسعى الباحثون لمعرفتها .

معالجة سرطان عنق الرحم

نشر مركز بحث سويدي يعنى بدراسة السرطان أرقاماً احصائية عن نسبة نجاح سرطان عنق الرحم في مراحله الأربع وفق الجدول الآتي :

- في مرحلة الصفر نسبة النجاح تكون ١٠٠٪ أي في بدء الاصابة .
- في المرحلة الأولى نسبة النجاح هي ٧٥,٨٪ .
- في المرحلة الثانية نسبة النجاح هي ٥٤,٤٪ .
- في المرحلة الثالثة نسبة النجاح هي ٣١,٤٪ .
- في المرحلة الرابعة نسبة النجاح هي ٨,٦٪ فقط .

ومما يدل على أهمية كبيرة للكشف المبكر عن سرطان عنق الرحم ، وضرورة تزويد الاناث في المدارس بأعراض هذا المرض منذ بدء ظهوره ، لتكون الفتاة على بينة من أمرها عند ظهور بعض الأعراض المشابهة ، وعرض نفسها على الاخصائيين لاتخاذ الاجراءات اللازمة للتشخيص على المستويين السريري والمخبري . خاصة وانه لم يواجه أي مرض بسوء الفهم ، وسوء الوصف ، أو الاحاطة بضباب كثيف من الخوف في أذهان الناس مثلما يواجه السرطان ، فالتثقيف الصحي أمر لا مندوحة عنه بالنسبة للفتاة حول تركيب جهازها التناسلي ، وما يجب عليها الانتباه اليه فيما يتعلق بهذا الداء .

وعلى هذا فانه ينبغي على المرأة منذ بلوغها سن الخامسة والثلاثين فما فوق بشكل خاص أن تقوم بعمل فحص يتعلق بسرطان الرحم ، ويكفي تشخيص بداءته بطريق «اللطاخة المهبلية» ويكفي تكرار هذه الطريقة مرة كل ثلاث أو أربع سنوات . ففي ذلك ولا شك ، انقاذ لحياة المرأة من خطر هذا الداء الخبيث والحد من انتشاره ●

المولود الثامن

بقلم: الأستاذ محمد المجذوب

لم يكن واعياً لما حوله من حركة العمال والزبائن، وكان يرد تحية رواد الحانوت على دأبه من الكياسة واللطف، دون أن يصرف بصره نحوهم إلا قليلاً.. وقد بدا عليه الاستغراق في شيء غير منظور.. إنه مطبق الشفتين على حلمة النرجيلة لا يكاد يكف عن امتصاصها.. وترك ليده أن تعبث بقلم الرصاص على بعض الأوراق التي نثرت أمامه فوق ظهر المكتب.

لقد عاد قبل قليل من جولته اليومية على حوانيته الأربعة ، بعد أن قام بمراقبة لحومها ، وعمل جزاريها ، واطمأن الى حركتها التي لا تألف الفتور ، وها هو ذا يستقر أخيراً وراء هذا النّضد كشأنه من ضحى كل يوم .. على أن شيئاً واحداً قد غير من وضعه هذه المرة ، فجعله حاضراً كغائب ، لا يكاد يتصل بشيء من أمر هذا الحانوت ، الذي كان بسبب موقعه الممتاز أحفل حوانيته بالحركة ، ولعله لو سئل عما يشغله لما استطاع تحديد أمر بعينه ، لأن المشاغل التي استحوذت على خياله آنئذ كانت أكثر عدداً من أن يحصيها انها لتتدفق في ذاكرته راكضة متداخلة متصادمة ، فما أن يحاول لتشبث باحداها حتى تنفلت متوارية ، لتخلي مكانها لغيرها ، مما أكرهه أخيراً على اتخاذ موقف المتفرج منها جميعاً ، فهو غارق منها في غمرة من التأمل لا يستقر على حال ..

وتتابعت مواكب الذكريات يقفو بعضها بعضاً ، ويزحم بعضها الآخر ..

وراقه أن يتشبث ولو قليلا بصورة ذلك الفتى ، الذي لم يكد يعرف لنفسه اسماً غير «أبي حاتم» .. تلك الكنية التي لصقت به منذ فتح عينيه على الدنيا .. انه ليلمحه بجلاء وهو يقطع مراحل العمر في نشاط لا يفتر ، حتى استطاع أن ينتقل من وظيفة عامل في خدمة أحد الجزارين الى شريك له ، ثم مالك للحانوت ، الذي ما لبث أن ضاق بعزيمته فولد له ثلاثة حوانيت .

وتعبر بأبي حاتم نفحة من الغبطة ، إذ يتذكر أنه استطاع أن يقصر دخله ، طوال هذه الأربعين من السنين ، على الحلال وحده ، فلم يسمح للشيطان أن يدنسه بالغش قط ، كما يصنع بعض الجزارين ، الذين لا يتورعون عن بيع البقر غنماً ، والمعزى ضأناً ، أو كما فعل أحدهم الذي ضبط وهو يحمل لحم الحمير الى حانوته ، ليصنع منه نقانق يبيعها للناس على أنها من أطايب الطعام .

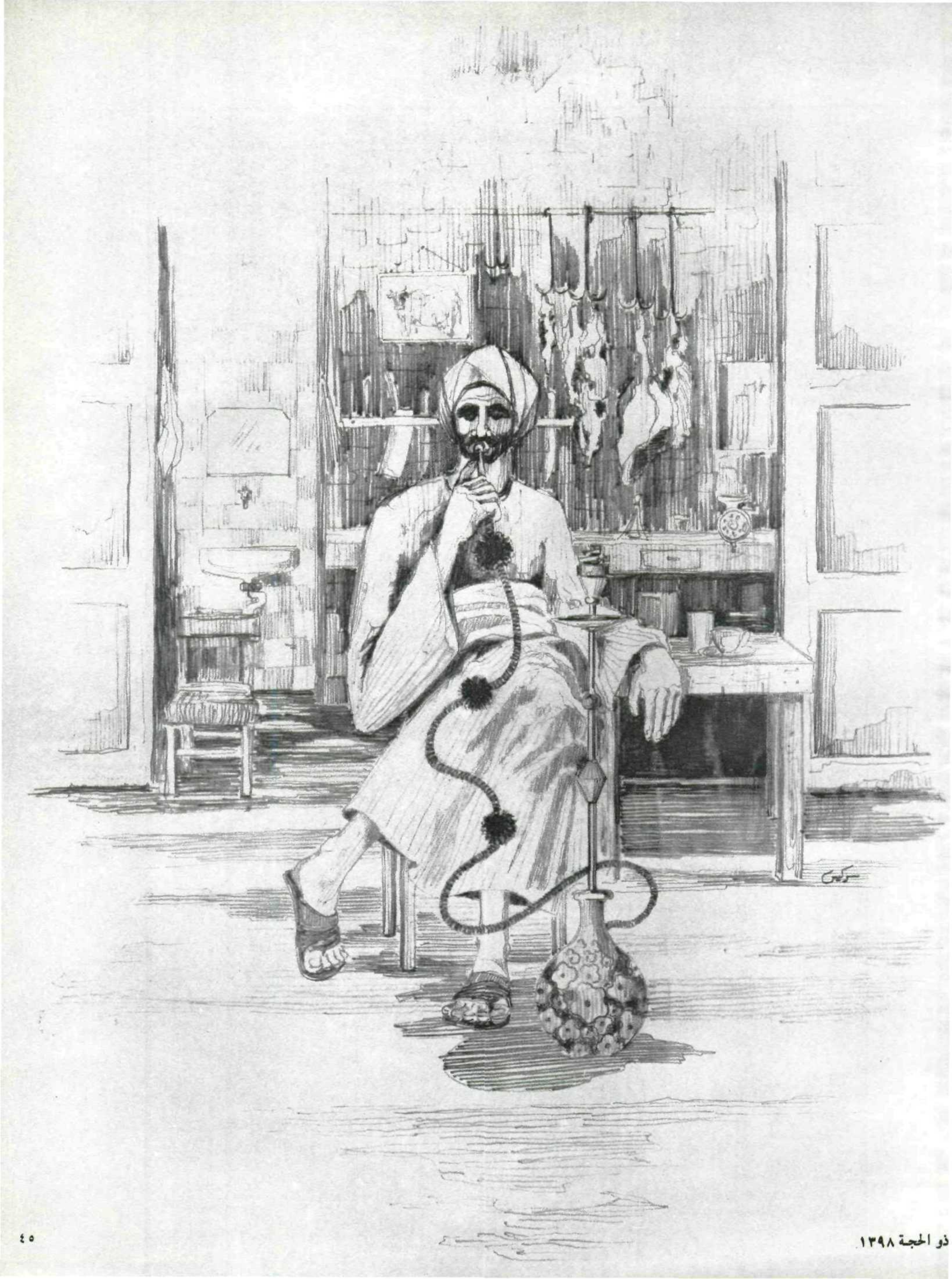
أجل .. انه لا ينسى مشاركته الجزارين باستغلال الأزمات التي مرت بالناس ، فأتاحت له ولزملائه أن يرفعوا أسعارهم ، فضخموا بذلك دخلهم الى الحد الذي لم يخطر في تصورهم .. ولكن .. حتى هذا لم يخرج عن النطاق المشروع . لأن هذا التزيد في الأرباح لم يكن خاصاً بالجزارين وحدهم ، بل كان وباء عاماً فاجأ الناس بمثل السيل الجارف ، فلم ينج من وقعه أحد بائعاً ولا مشترياً ولا عاملا .. وحسبه وأمثاله أنهم لم يكرهوا أحداً على معاملتهم ، ولم يأخذوا من أحد قرشاً الا عن تراض وعن طيب خاطر .

وتتلاحق صور الفتى في ذاكرته حتى شارف الخامسة والخمسين ، وفتح الله عليه فكثر ماله ، ووفقه الى العديد من الطاعات ، فهو يؤدي ما عليه من حق الزكاة ، ويسهم في عمل الخير كلما وجد الى ذلك سبيلا ، وقد يسر الله له الحج ، فلم يكتف بالفريضة بل ضم اليها غيرها ، ولا يزال يؤم البيت الحرام لأداء العمرة ، ويؤدي الأربعين صلاة في المسجد النبوي بالمدينة المنورة مرة في كل عام على الأقل .

وتعمل هذه المرئيات عملها في صدر أبي حاتم ، فيستشعر روحاً من الرضى يسري كالنشوة في أرجاء جسمه كله .. غير أن ذلك لا يستمر طويلا إذ سرعان ما يعقبه مشهد آخر لا يلبث أن يطغي على ذكرياته فينغصها ..

وجعل أبو حاتم يتمتم : فاطمة . خديجة . سلوى . ايمان . أمان . زينب . فتحية ... ولكن ليس بينهم حاتم ! ..

إن الناس لا يعرفونه بواحدة من هؤلاء البنات بل يعرفونه بحاتم فقط ، وقل من يعرف اسمه الأول (حميد) فكلهم يناديه أبو حاتم ، وأينما عبر أو ظهر رن في سمعه صوت أو أصوات تحييه أو تستدعيه بهذه الكنية الحبيبة .. ومع ذلك فها هو ذا يشارف الشيخوخة دون أن يرى لحاتم وجهاً أو يسمع له صوتاً .. ولقد عبرت به مع (رقية) زوجه الأولى عشرون سنة لم يرزق منها بوليد قط ، وهو صابر راض غير يائس ، حتى كشفت لهما الحاذقات من المتخصصات في الطب النسوي انها عقيم لا أمل لها بالحمل . ومع ذلك لم يفكر بتغييرها أو ضم واحدة أخرى اليها ، رعاية لمودتها ، وتقديراً لفضلها الذي لا يستطيع له نسياناً .. وكيف يسمح لنفسه باضرارها وهو الذي لا يذكر لها سيئة قط ، بل لا يذكر من حياتها معه سوى الرحمة والعناية والأمانة والصبر عليه في مختلف الأحوال .. ولكن رقية وقد استيقنت ما أعلنه الأطباء من عقمها لم ترض أن تفرض عليه العقم أيضاً ، فما زالت به تراوده على الزواج حتى لم يجد مفراً من الموافقة . إلا أنه لم ينس أن يحذرها مغبة هذه المغامرة .. وراح يذكرها بجيرانه الذين أبوا إلا التعدد ، فلم يلبثوا أن ذاقوا وبال أمرهم ، واستحالت حياتهم في ظل التعدد جحيماً لا يطاق .. وما كان أكرم جوابها على تحذيره إذ قالت





لـه : لقد ثنّى أولئك وثلثوا لغير حاجة بل لمجرد الترف ، فكان عليهم أن يتحملوا عواقب ما فعلوا غيرة وتأمراً واشفاقاً .. أما نحن فانما نبتغي من وراء ذلك أن يتجلى الله علينا برحمته فيرزقنا ذرية نأنس بها ونسعد . وتسكت قليلا ثم تستأنف في استحياء : ان في قلب المرأة فراغاً لا يملؤه الا الولد يا أبا حاتم .. واذ لم أحمل ولدك في بطني فسأحمله على صدري ان شاء الله .

وَترك لرقية يومئذ أن تختار له من تشاء ، ونجح اختيارها الى أبعد الحدود ، اذ جاءته بتلك الفتاة الفقيرة من جيرانه الأدنين ، فكانت له نعم الزوجة ، وكانت لرقية نعم الأخت ، تخصها بالاكرام ، وتنتفع بنصائحها في كل ما يتصل بالحياة الزوجية والمنزلية .. وما كان أسعده ورقية لما تجلت بوادر الحمل الأول على (سمية) فراحا يقدران ويفصلان وكأنهما في حلم متصل هنيء ..

وقضت رقية أشهر الحمل كلها في خدمة رفيقتها كالممرضة المخلصة ، تتفرغ لرعاية مريض عزيز فلا تكلفها عملا ، ولا تحرمها مشتهى ، وتقدم لها من الطعام والفاكهة والطرائف كل ما تظن أو يظن غيرها أن فيه خيراً لها ولجنينها ..

وكانت ساعة نادرة الجمال يوم أكرمهم الله باطلالة البنت الأولى ، التي اختاروا لها اسم أمه ، وحملتها رقية لأبي حاتم فور خروجها الى الدنيا ليمتع بصره بطلعتها الجميلة ، وليؤذن في سمعها ، فتكون (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) أول ما تستقبله من لغات البشر ، ولم تنس أن تكرر على مسمعه القولة الموروثة في مثل هذا المقام : «من طلائع اليمن أن يكون المولود الأول أنثى يا أبا حاتم .. » وأكد يقينه بذلك قائلا : «وكم من أنثى خير من مئة صبي يا أم حاتم» .

ثم تلاحقت المولودات سنة بعد سنة حتى استتم عددهن السبع .

وَطبيعيّ أن الفرحة القديمة بولادة (فاطمة) لم تستمر ، بل جعلت تضعف مرة بعد مرة ، حتى استحالت أخيراً ثقلا مزعجاً بالنسبة الى أبي حاتم على الأقل .

ولقد استطاع أبو حاتم أن يضبط أعصابه ، فلم يسمح للسانه أن يفوه بكلمة تجرح سمية حتى الولادة السابعة ، ولكنه لا ينسى أنه لم يمنحها أية هدية أو تهنئة بالخلاص منذ البنت الرابعة ، بل لقد درج على اهمال الأمر كلياً فلم يسألها عن أشهر الحمل ولا عن موعد الوضع ، فاذا ما شعر بطلائع الولادة غادر البيت فلم يعد اليه إلا بعد زوال الظواهر المتصلة بالموضوع .. وألف الجميع منه ذلك فلا يخبرونه بشيء ، وقد يختارون للمولودة الاسم المناسب دون استشارته ، ومرد ذلك الى ما استقر في قلبه من أنه لن يكون خيراً من عمه الذي تتابعت عليه البنات حتى سجلن الرقم الثاني عشر ، ثم توفاه الله دون أن يسمي له صبي خارج حدود كنيته التقليدية (أبو حاسم).

وَتَتراءى لخياله صورة رقية وهي تعالج هذا الواقع الفاجع بكل ما تملك من حكمة وجهد . فهي التي تتولى معظم أعباء الخدمة التي تتطلبها الصغيرات ، وتحيط برعايتها أمهن التي يوشك الأسى أن يحطمها ، كلما تذكرت أن القدر قد حال بينها وبين الأمنية الكبيرة التي يخفق لها قلبه . وقد بات أزعج شيء لرقية تلك الاشاعات التي تتحدث عن رغبته

ـ فراق سمية ، والقيام بتجربة ثالثة تضع مكان سمية امرأة أخرى يمكن ـن يحقق الله عن طريقها ما لم يقدره لسواها ..

ومن حق زوجتيه كلتيهما أن تقلقهما هذه الاشاعات التي لم تكن بعيدة ـن الحقيقة ، فهو لا ينفك يتلقى نصائح أقربائه حول هذه القضية ، يكاد يقتنع بأن للأنوثة والذكورة علاقة وثقى بتأثير الارث ، فكما تغلب لأنوثة على امرأة فتكثر بناتها ، كذلك قد تغلب الذكورة على أخرى لا تلد إلا البنين .. وما الذي يمنعه من تحقيق هذه التجربة فيسرح سمية يأتي بغيرها ، ما دام ذلك ضمن حدود الشريعة ، وما دام في ماله متسع تنفيـذه ! ..

ولكن هؤلاء البنات اللآتي لا تزيد كبراهن عن الأثنتي عشرة ، ولم ستكمل سابعتهن الثالثة بعد .. ما مصيرهن اذا قطعت هذه الصلة الزوجية ين والديهن ! ..

وثبت الى ذاكرته صورة جاره المهندس ، الذي فارق زوجته وتخلت له عن صغاره الثلاثة .. ثم ما يعانيه هؤلاء الأيتام في ظل خالة التي رفضت مساكنتهم .. وراح يهمس لنفسه : أيكون حظ بناتي خيراً من حظ هؤلاء ! ..

وسرعان ما جره هذا التساؤل الى ذكرى رقية قائمة في الثلث الأخير من ليل تصلي ، وتضرع الى الله أن يتدارك برحمته هذا البيت ، فلا يصيبه ا أصاب بيت المهندس ، وأن يستبقي سمية المسكينة لبناتها فلا يفجعها فراقهن ، ولا يفجعهن بفراقها ..

وأغمض عينيه .. وجعل يعيد عبارتها التي لا يستطيع أن يمحوها من اكرته «يا جاعل النار برداً وسلاماً على ابراهيم .. اجعل ما في بطن سمية كراً بدلا من الأنثى .. اللهم اجعله «حاتماً» ولا تجعله «كفى» يا أرحم راحمين» ..

ويكرر كلمة «كفى» ولم يكن قد نسي بعد أنه هو الذي اقترحها على قية اسماً للمولودة القادمة ، أسوة بالناس ، الذين ضاقوا مثله ذرعاً بكثرة بنات ، فأطلقوا على أخراهن هذا الاسم ، تفاؤلا بأن تكون نهاية السلسلة ، الفلق الذي يختم بـه البناء ..

وأحس نفحة من شعور غامض يغمره فيتمتم : لا .. لن أكسر قلبك رقية ، ولن أتعجل بطلاق سمية ، بل سأصبر على أمرها حتى يقضي الله أمــره ..

وأدار (نربيج) النرجيلة حول عنقها النحاسي المتألق ، ثم نهض متثاقلا أخذ طريقه الى بيته القريب ، وليقول لرقية : تهيئوا للسفر الى بقين ، قد قررت أن أستأجر لكم منزلا تقضون فيه بقية الصيف .. وتضع فيه مية مولودتها الثامنة ..

وفي رعشة من الفرح عقبت رقيــة على كلمته : بل المولود الجديـد لحبيب .. ان شاء الله .

ولم يتمالك أن أردف بمثل الهمس : ان شاء الله ! .

ـم يتفق لأبي حاتم أن قضى مثل هذه الليالي المتتابعات وحيداً في هذا المنزل منذ اشتراه قبل عشر سنوات .. ومع ذلك لم تسؤه ـذه الوحدة ، بل لقد عادت عليه بالكثير من الراحة ، اذ أنقذته من ضوضاء التي طالما شكاها من قبل ، كلما أراد القيلولة أو أوى الى غرفته الخاصـــة لراحـــة الليل .

ولقد كثرت رؤاه خلال هذه الليالي ، وتفاوت وقعها في نفسه ، ولكن رؤيا اليوم تختلف عنها جميعاً بأنها لا تزال ماثلة في خياله كما واجهها في نومه ، وأن من حقها أن تزعجه لو طبق عليها أحكام اليقظة ، فليس بالهين أن يتحقق ما توقعه من ولادة «كفى» وان لم تخرج عن كونها واحدة من السلسلة المألوفة .

ومع هذا فقد رأى أنه يحتضنها بشغف وأنه يمطرها الحار من القبلات !

واستوى على مقعده الدوار وراء المكتب ، الذي قل أن يكتب عليه شيء ، وأكب على (تعميرته) يصلح وضعها ، وينفخ الرماد عن نارها ، ثم أطبق شفتيه على الحلمة الفضية ، وجعل يمصها في عمق وهو يفكر : ترى هل تتحقق الرؤيا كما حدثت تماماً ؟ .. وهل من المعقول أن استقبل «كفى» بالارتياح نفسه ! ..

وتذكر ما يتسامع بـه الناس من أن البنت في الرؤيا تشير الى طالع سعيد ، بخلاف الصبي الذي يحمل من الرؤيا معنى المصيبة ..

وتعذر عليه أن يستقر على تأويل ، فقد كان موزع النفس بين الدلالتين على سـواء .

وفي حركة آلية مد يده الى علبة المناديل فاستل أثنين منها ، وجعل يدلك بهما جبهته التي وسع الصلع مساحتها .. وبدا وجهه الأسمر الصارم التقاطيع من تحتها ، وكأنه ملفوف في غلالة متموجة اللون مما يحيط بـه من الدخان ، وأرسل عينيه السوداوين باتجاه الشارع المزدحم بالمارة دون أن يقصد الى منظور معين ..

ان مجرى الأحداث يركز ذهنه على البنت الثامنة دون ما ريب ، ولكن صفاء رؤياه وما سكبته على نفسه من مشاعر الرضى يشده بالقوة نفسها الى الجانب المقابل ..

ويقطع جرس الهاتف حبل تصوراته ، فيرفع السماعة في بطء . وقبل أن يتلقى الصوت شرع يقول : أهلا .. سعيد بك .. لقد أرسلت اليكم كل ما طلبتموه ، فهل تريدون شيئاً آخر ؟ .. نحن بالخدمة يا بيك ..

ويسمع الرد ولكن من غير الجهة التي توقعها : أنا أخوك .. أكلمك من بقيـن ..

– يا هلا .. كيف الصحة ؟ .. مشتاقين ..

– بخير ولله الحمد .. هذه زوجتك تكلمك من بيتنـا ..

– هالو .. رقيـة ! .. خير ان شاء الله .

وجاء صوت رقيـة كأنه زغردة والدة في عرس وحيدها : تهانينا يا أبا حاتم .. لقد استجاب الله الدعاء وجبر القلوب .. لو رأيته يا أبا حاتم .. انـه مثلك .. آية في الجمال والصحة .. فالحمد لله ..

وكانت مفاجأة عقدت لسان الرجل لحظة ، ثم جعل يقول بصوت كأنه النشيج التهاني مشتركة .. أبلغي سمية تمنياتي .. أنا في الطريق اليكم .. الحمد لله .. الحمد لله ●

محمد المجذوب – المدينة المنورة

مَولِدٌ جَدِيدٌ

للشاعر: محمد العيد الخطراوي

حياتيَ كهفٌ بعيدُ المدى — يموتُ على ناجذَيْه الصّدى

وفي جانبيْهِ تئنّ الرياحُ — وتحثُو على حافتيْه الرّدى

كآهٍ تكسّر بين الشّفاه — تمزّقُ أحشاءَ سعْدٍ بدا

وتمحُو البريقَ بقلبٍ مُحب — أبى حظّهُ النكدُ أن يَسْعدا

وعُمريَ ليلٌ جريحُ النجوم — صفيقُ المحيّا .. ثقيلُ الحدا

وفي عتمةِ الحزنِ والجذْبِ ثاوٍ — يسيرُ هباءً ، ويمضي سُدى

ولما عرفتُكِ يا حُلوتي — عرفتُ بدربي طريقَ الهُدى

وأمسى لعمريَ معنىً أنيقٌ — خليقٌ بما فيه أن يُحْمدا

وزغْرَدَ في داخلي كلُّ شيء — وصفّق يستقبلُ الموْلِدا

وعانقَ في الكونِ شوقَ الحياةِ — كما عانقَ الزهرَ ثغرُ الندى

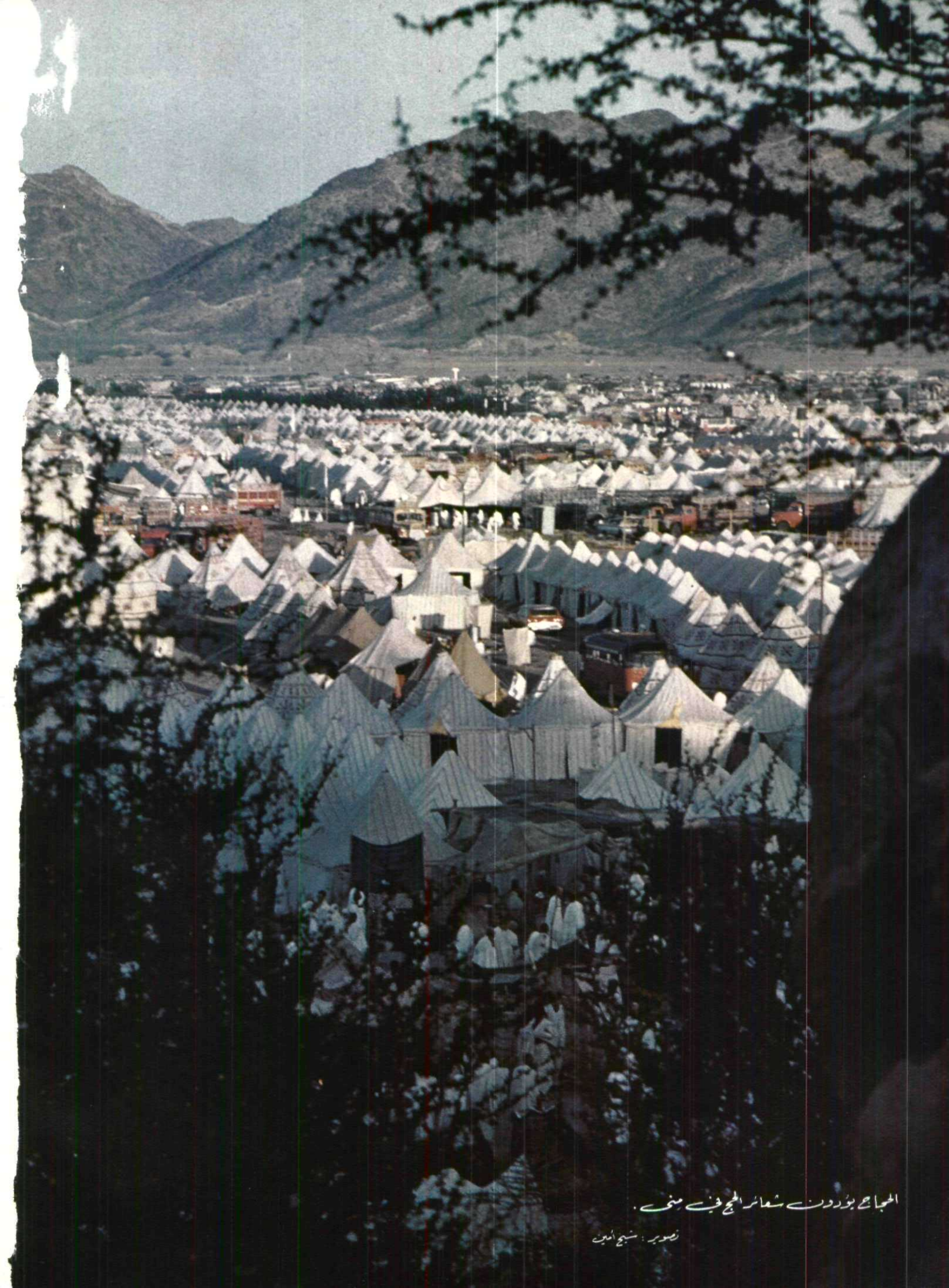
فما أروعَ الفجرَ يولدُ طفلا — بمهدِ الغمامِ قشيبَ الرِّدا

تنشّرُ كفّاه عُرس الضِّياء — رقيقَ الحواشي .. غنيَّ الندا

ويندلقُ العطرُ من راحتيه — كعينين راقبَتا الموْعِدا

وما أجْدرَ الشّعرَ ان الهمتْه — عيونُكِ في الفنّ أن يخلدا





الحجاج يؤدون شعائر الحج في منى .

تصوير : شيخ أمين